حفريات معاصرة حول مناظرة رينان والأفغاني

د. سمير بن هاشم بن خضير

المقدمة

الحمدلله الذي أدب المتعلمين بعقل سليم وهداهم بتنوير أذهانهم إلى نظر مستقيم، ومنعهم عن الغضب والمكابرة بسند حكيم، ونقض جهل قلوبهم بشاهد قويم، وعارض من عارضهم بمعارض قائم على الدليل ، كما أحمده سبحانه بأنْ أدبنا بآداب المناظرين، ومنعنا في البحث من عناد المكابرين، وحلّانا بآيات لا ينقضها نقض المعاندين، والصلاة والسلام على من خُلق على خَلق عظيم، فأوصاه ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل القويم، فشيد أركان الدين بالإسناد اليقين، وعلى آله وأصحابه الذين عرفوا الشريعة بجهد متين، وصدقوا بقلب صحيح، واتبعوا عن علم بلا تقليد، فتنعموا بنعيم مقيم...

أما بعد:

فهناك مناظرات في التاريخ بقت متألقة في التاريخ رغم الأحقاب الغبارية الطويلة، فهي تتألق وتبرق كالنجوم في ظلام السماء، وهي بحاجة لحفريات جديدة عميقة تتناسب وأثرها في العقلية الإنسانية، ولاسيما أنَّ بعضها كان بعيداً عن التحقيق، وبعضها يفتقد النصوص الأصلية لأصحابها؛ لذا أحببت أنْ أُعلق على واحدة من هذه المناظرات وتفسيرها تفسيراً يتلاءم مع فترتها الزمنية بدون قيود وأحكام مسبقة على مناظريها سواء كان بالتقديس أم التفسيق.

وإليك بعض المناظرات التي لم تخضع لحفريات جديدة معاصرة:

١- مناظرة جهم بن صفوان للطائفة السمّنية الهندية.

٢- مناظرة الإمام الأشعري لأبي علي الجبائي.

٣- مناظرة الإمام أحمد للمعتزلة.

٤- مناظرة الإمام الفخر الرازي للقاضي ابن القدوة ممثل الكرّامية في هَراة.

٥- مناظرة الإمام ابن تيمية للفقهاء والمتكلمين في محاكمته.

٦- مناظرة الفيلسوف الفرنسي رينان مع فيلسوف الشرق جمال الدين الأفغاني.

اختار الباحث هنا المناظرة بين رينان والأفغاني؛ لأنها تمثل نظرة الفلسفة للدين، تمثل الصراع المزعوم بين العلم والأديان، تمثل الصراع بين الاعتقاد السماوي والاعتقاد الأرضي، تمثل الصراع بين الفيلسوف الشرقي والفيلسوف الغربي.

إنَّ هذه الصراعات الحية مازالت محور الخلاف بين التيارات الإسلامية والتيارات العلمانية الحداثية المعاصرة، وهي سبب اختياري لمشكلة البحث، ولا سيما أنَّ ردَّ الأفغاني المترجَم[١] ظهر لأول مرة كاملاً متيسراً للباحثين قبل سنوات قليلة فقط.

تناول الباحث هذا الموضوع المتلاطم بأربعة مباحث:

يشمل **الأول** تعريف المناظرة لغة واصطلاحاً، **والثاني** يشمل أبرز أفكار الفيلسوف رينان في محاضرته الإسلام والعلم بعد التهذيب والاختصار، **والثالث** يشمل أبرز ردود الأفغاني على رينان بعد التهذيب والاختصار، **والرابع** يشمل حفريات حول ردود الأفغاني، ثم **الخاتمة**.

---

١. لم نجد في المصادر التي كتبت عن الأفغاني مع كثرتها نصاً كاملاً لرده على رينان، إنما اختاروا منه فقرات فقط ولا سيما أنه بعثه إلى جريدة Debats باللغة الفرنسية؛ لذا اختلف الباحثون في مدحه وذمه بعد هذا المقال حسب ما وصل إليهم من الفقرات المترجمة من الجريدة الفرنسية، ولم يعثر على النص العربي من خط الأفغاني نهائياً. الباحث.

المبحث الأول
مفهـــوم المناظـــرة

تعريف المناظرة لغة: أرجع أهلُ اللغة لفظ المناظرة إلى جذرها، فهي إما من (نظر) أو من (نظير). وعلى الأول فمعناه: النظر بالعين أو القلب، قال الفراهيدي:" تقول نظرتُ إلى كذا وكذا، من نظر العين والقلب، ورجل نظور أي لا يغفل عن النظر إلى ما أهمه "[١]. وذكر صاحب الصحاح من معانيه: تأمل الشيء بالعين، وبمعنى الانتظار.[٢] وعلى المعنى الثاني: النظير هو الكُفء والمساوي،[٣] والشبيه،[٤] وتناظر بمعنى تقابل،[٥] ويلاحظ هنا أنَّ المعنى يدور حول المساواة والعديل والضريب والشبيه والمثيل والكفء، وهي ألفاظ مترادفة.

وذكر صاحب كتاب جامع العلوم في اصطلاحات الفنون عدة معاني لغوية للمناظرة وبيّن وجه المناسبة بينهما:

١- النظير: المثيل، ووجه المناسبة أنه ينبغي أنْ تكون المناظرة بين متماثلين.

٢- النظر: الإبصار بعين الرأس، ووجه المناسبة أنَّ المتخاصمين ينظر بعضهم إلى بعض.

٣- النظر: بمعنى التفات النفس إلى المعقولات والتأمل فيها، ووجه المناسبة إلى أولوية التأمل في قول الخصم أولاً، ثم التأمل في جوابه قبل الرد.

---

١. الفراهيدي: الخليل بن أحمد (ت: ١٧٠هـ)، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار: الهلال، (٨/ ١٥٤)

٢. الجوهري: إسماعيل بن حماد (ت: ٣٩٣هـ)، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، دار: العلوم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٩٠م، (٣٩٤/٣).

٣. ابن منظور: محمد بن مكرم الأفريقي (ت:٧١١هـ)، لسان العرب، دار: صادر، بيروت، ط١، (١٣٩/١).

٤. الفيروز آبادي: محمد بن يعقوب (ت: ٨١٧هـ)، القاموس المحيط ، (١/ ٩٠٢).

٥. الجوهري: الصحاح، مصدر سابق، (٣٩٤/٣).

٤- الانتظار: المُهلة، ووجه المناسبة هو انتظار أحد المتخاصمين إلى أنْ يُتم الآخر كلامه، وهكذا لا أنْ يقاطعه في وسط الكلام.

٥- التناظر: بمعنى المقابلة، ووجه المناسبة هنا حسي ومعنوي، فأما الأول وهو أنْ يجلس المتخاصمان مقابل بعض، وأما الثاني فإنهما يتقابلان بالحجج والإيرادات.[١]

تعريف المناظرة اصطلاحاً: أجمع أغلبُ المعرفين على أنها:" النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب"[٢].

وأضاف صاحب جامع العلوم في اصطلاحات الفنون تعريفاً لها من حيث الفائدة وكونها علماً، فقال:" المناظرة: علمٌ باحث عن كيفية البحث وصيانة للذهن عن الضلالة "[٣]. ومن التعاريف المعاصرة:" المناظرة: هي المحاورة في الكلام بين شخصين مختلفين، يقصد كلٌّ واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول الآخر، مع رغبة كلٌّ واحد منهما في ظهور الحقِّ، ثم قال: أي مشاركتهما في النظر الذي هو الفكر المؤدي إلى علم، أو غلبة ظن ليظهر الصواب فهي بذلك تردد الكلام بين شخصين "[٤].

---

١. الأحمد أنكري: القاضي عبد رب النبي، دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، تحقيق: حسن هاني، دار: الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، (٣/ ٢٣٣- ٢٣٤).

٢. الجرجاني: علي بن محمد (ت: ٨١٦هـ)، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار: الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ، ص٢٩٨. وكذا: السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن (ت: ٩١١هـ)، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، تحقيق: محمد إبراهيم، دار: الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م، ص ٧٦. وكذا الكفومي: أيوب الحسيني (ت: ١٠٩٥هـ) الكليات، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، دار: الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ص١٣٦٩. وكذا: الجونغري الهندي: عبدالرشيد (ت: ١٠٨٣هـ)، شرح الرشيدية على رسالة الشريف الجرجاني في آداب البحث والمناظرة، تحقيق: علي مصطفى، دار: الإيمان، مصر، ط١، ٢٠٠٦م، ص ١٤.

٣. الأحمد أنكري: جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، مصدر سابق، (٢/ ٢٦٢).

٤. محمد بن حسن المهدي: بهجة المجالس حول آداب البحث والمناظرة، دار: المطبعة العربية الحديثة، مصر، سوهاج، ط١، ٢٠٠٨م، ص ٢٠.

المناظرة:" تردد الكلام بين شخصين يقصد كلٌّ منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه مع رغبة كلٍّ منهما في ظهور الحقِّ "[١].

وبقية التعاريف متماثلة ومتقاربة لا تخرج عما ذكرناه آنفاً.

فائدة المناظرة:

١- علم يقتدر معه على بيان مواضع الخطأ في حجة الخصم.

٢- إقامة الأدلة اليقينية على صحة الحقِّ وإبطال الباطل.

٣- تُثير المعاني وتصقل الأذهان.

٤- تصحيح مفاهيم الناس.[٢]

١. السعدي: عبد الملك بن عبد الرحمن، حسن المحاورة في آداب البحث والمناظرة، دار: النور، عمان، ط١، ٢٠١١م، ص٨٣.

٢. استنبطها الباحث من المصادر السابقة.

المبحث الثاني
أبرز أفكار الفيلسوف الفرنسي رينان في محاضرته الإسلام والعلم

ألقى الفيلسوف الفرنسي أرنست رينان[١] Renan محاضرة في جامعة السربون[٢] الفرنسية Sorbonne، بتاريخ ٢٩ مارس (آذار) سنة ١٨٨٣م ، بعنوان الإسلام والعلم، وتناول فيها:

مدح رينان الحضور بعد الترحيب به، وقال: إنَّ حشدكم النبيل يجعلني أتجرأ اليوم في اختيار موضوع شديد الدقة والحساسية، وهو من أكثر الأفكار غموضاً، أتكلم عن محتوى ملتبس وهو: العلم العربي، الفلسفة العربية، الفن العربي، العلم الإسلامي، الحضارة الإسلامية، وهي أفكار غامضة يُستنتج منها أحكام خاطئة وأخطاء عملية.

الواقع يثبت التدني الحالي للبلدان الإسلامية، يثبت تراجع الدول التي يحكمها الإسلام، يثبت العجز الفكري للأجناس التي تتمسك فقط بهذا الدين، يثبت بلادة الذهنية القدرية للمؤمن الحقيقي كأنها دائرة حديدية تحيط برأسه وتجعله منغلقاً بشكل مطلق عن العلم، فهو غير قادر على تعلم أي شيءٍ أو الانفتاح على أي فكرة جديدة وذلك بسبب الممارسات الدينية للطفل المسلم في حدود (١٠ – ١٢) سنة من عمره،

---

١. أرسنت رينان (١٨٢٣ – ١٨٩٢م) فيلسوف فرنسي، بدأ حياته بالتعليم الديني، ثم تأثر بهيجل ودرس الأديان والتاريخ واللغات السامية، كتب رسالة الدكتوراه عن ابن رشد، عاش أزمة بين العلم والدين، وأرد للعلم أن يحل بدل الدين، طرد من الجامعة لأرائه الحرة فأصبح شعبياً أكثر. انظر: الطرابيشي: جورج، معجم الفلاسفة، دار: الطليعة، بيروت، ط٣، ٢٠٠٦م، ص ٣٣٩.

٢. جامعة السوربون : من أرقى جامعات العالم وأول من أعطت شهادة الدكتوراة تأسست سنة ١٢٥٣م بجهود روبيردي سوربون المرشد الروحي للملك لويس التاسع الفرنسي، تختص بالأدب والتاريخ والاجتماع والشؤون الدولية، من أبرز خريجيها من العرب: طه حسين، الحبيب بورقيبة، كمال جنبلاط، حسن الترابي، محمود عبد الحليم، ميشيل عفلق، برهان غليون، أحمد شوقي، بطرس غالي، أحمد الطيب، ومؤخراً فتحت الجامعة فرعا وحيدا خارج فرنسا في دولة الإمارات، انظر: موقع ويكيبيديا. الباحث يسمّي الجامعة بماكنة تفريخ العلمانية.

فهو لحد هذا العمر كان نابهاً، فيتحول فجأة إلى متعصب مفعماً بعزة بلهاء؛ لاعتقاده أنه يملك الحقيقة المطلقة.

هذه هي الآفة الأساسية للمسلم (الاعتقاد بامتلاكه الحقيقة المطلقة)، وهي الأثر السلبي للعقيدة الإسلامية، التي تزرع فيه:

١- الازدراء للديانات الأخرى.

٢- الاقتناع بأن الله يعطي الثروة والسلطة لمن يشاء دون اعتبار لنوع التعليم أو التميز الشخصي.

٣- الاحتقار الشديد للمعارف والعلوم ولكل ما يشكل العقل الأوربي.

٤- اختفاء (ذوبان) العرق والجنس حالما يعتنق الفردُ الإسلام، فيختفي العرق البربري والمصري والماليزي و...إلخ، ويستثنى من ذلك العرق الفارسي؛ لأنهم احتفظوا بعبقريتهم الخاصة، إنهم شيعة[١] أكثر من كونهم مسلمين.

سُقنا هنا براهين مغضبة ضد الإسلام.... نود هنا الحديث والنقاش هل يوجد في الواقع عِلم إسلامي أو هل يوجد عِلم يقبله الإسلام ويسامح معه ؟

الفترة بين عام (٧٧٥ – ١٢٥٠م) أي ٥٠٠ سنة تقريباً، نعم كان في البلاد الإسلامية علماء ومفكرون، هي فترة شهدت تفوق العالم الإسلامي في الثقافة العقلية مقارنة بالعالم المسيحي.

ولكن علينا أنْ نحلل هذه الفترة حتى لا نصل إلى نتائج مغلوطة، منهجي سينصب على تحليل الحضارة في الشرق عبر القرون؛ لنحدد أدوار العناصر المختلفة التي قادت إلى هذا التفوق المؤقت.

---

١. يرى الباحث أن رينان لم يكن موفقاً هنا في طرحه، وهذا ما سنبينه في المبحث الرابع.

بدأ رينان بذكر القرون واعتبر أنَّ القرن الأول كثف ضرباته العاتية ضد إيران، فأوقفوا تطورها الكبير، وقال إنَّ مجيء العباسيين كأنه جاء لبعث عظمة الأكاسرة، حيث إنَّ خلافتهم بدأت على إنجاز جنود الفرس يقودهم رؤساء فرس، والخلفاء ظلوا محاطين دائماً بالفرس، ثم ذكر رينان المستشارين والمؤدبين للأمراء ورؤساء الوزارات وأنهم من البرامكة وهي عائلة فارسية، وذكر النساطرة أطباء الخلفاء، وذكر مدينة حران[١] ودورها في رفد التراث العقلي وهي مدينة وثنية فكرها إغريقي، ثم وصف خلفاء بني العباس بأنهم مزعزعي الإيمان، وأنَّ المنصور وهارون الرشيد والمأمون كانوا مسلمين بالكاد، يقومون بعبادات ظاهرة ولكن عقولهم في مكان آخر، يحبون الأشياء الغريبة والوثنية.

من هنا علا شأنُ بغداد باعتبارها عاصمة لهذه الأقاليم الفارسية الناهضة، وعلا شأن اللغة العربية كونها لغة الغزو.

إذا ما فكرنا بهذا النحو نستطيع أنْ نفسر حضارة بغداد، تلك الحضارة الجذابة والعجيبة التي تركت قصص ألف ليلة وليلة، إنها خليط غريب من تشدد رسمي وتراخٍ سري، ازدهرت الفنون الجادة وفنون حياة البهجة بفضل حماية رؤساء يسيئون الظنَّ بدين متعصب، في ظل هؤلاء تطور الفكر الحر.

وظف الخلفاءُ الأطباءَ المسيحيين السريان التابعين للمدارس الإغريقية بترجمة معارف أرسطو وإقليدس وجالنوس وبطليموس، وهي مجملُ العِلم اليوناني إلى اللغة

---

١. مدينة قديمة لبني تغلب من ديار مضر تقع في سوريا، وللصابئة فيها تل معظم، سكنها العرب الآراميون ثم الكلدان الأشوريون ثم احتلها اليونان فامتزجت فيها الفلسفات الكلدانية والفيثاغورية والهلينية، فتحها المسلمون وصالحوهم على الجزية، انظر: الحميري: محمد بن عبدالمنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، دار: ناصر للثقافة، ط٢، ١٩٨٠م، ص ١٩١.

العربية، في هذه الفترة نشطت بعضُ العقول مثل الكندي[١] في تأملات المشاكل الفلسفية، وأطلق عليهم الفلاسفة، فأصبحت هذه اللفظة الغريبة سيئة السمعة تدعو إلى الريبة وتجلب على صاحبها الموت أو الاضطهاد، ويوصف صاحبها بالزنديق وفيما بعد بالماسوني.

كما ظهرت جمعية فلسفية تسمى (أخوان الصفا)[٢] في نشر دائرة معارف فلسفية في الحكمة وسمو الأفكار، ثم أحتل رجلان عظيمان هما الفارابي[٣] وابن سينا[٤] مكاناً عظيماً في صفوف أعظم المفكرين كمالاً.

تطور الفَلَكُ والجبر خاصة في فارس، وتطورت الكيمياء عن كشف نتائج عجيبة مثل التقطير وربما البارود، وانكبت اسبانيا المسلمة على هذه الدراسات الشرقية، وتعاون اليهود في ذلك تعاونا نشطاً.

---

١. يعقوب بن إسحاق (ت: ٢٦٠هـ) من ذرية الصحابي الأشعث بن قيس بن معدي كرب من كندة من ذرية يشجب بن يعرب بن قحطان، أجداده من ملوك كندة، وجده كان أميرا على الكوفة للمهدي والرشيد العباسي، تبحر بالحكمة اليونانية والفارسية والهندية، ألف في الإلهيات والنبوات والفلسفة والمنطق والرياضيات والنجوم والموسيقى. انظر: القفطي: أخبار العلماء بأخيار الحكماء، (١/ ١٥٧).

٢. جماعة فلسفية ظهرت في القرن الثالث الهجري بالبصرة منبثقة من المذهب الإسماعيلي، اتحدوا على أن يوفقوا بين العقائد الإسلامية والفلسفة، فصفاء الشريعة يكون بالامتزاج مع الفلسفة اليونانية كتبوا خمسين رسالة سميت بـ (تحفة إخوان الصفا) ثم قام الحكيم المجريطي القرطبي في القرن الرابع فألف (رسائل إخوان الصفا). انظر: الموسوعة الفلسفة المختصرة، مترجمة باشراف د. زكي نجيب محمود، دار: القلم، بيروت، ص ٣٦.

٣. محمد بن طرخان الفارابي (ت: ٣٣٩هـ) ولد في مدن الترك ثم استوطن بغداد، برز في العلوم الفلسفية والمنطقية وشرح كتب أفلاطون وأرسطو، من مؤلفاته: المدينة الفاضلة، السياسة المدنية، السيرة الفاضلة. انظر: القفطي: أخبار العلماء بأخيار الحكماء، (١/ ١١٨).

٤. الحسين بن عبد الله ابن سينا (ت: ٤٢٨هـ) الفيلسوف الرئيس صاحب التصانيف العجيبة في الطب والمنطق والطبيعيات والإلهيات والفلسفة، كان باطنياً قرمطياً إسماعيلياً، استوزر لبني بويه، ثم تمرض فقيل تاب واغتسل وتصدق ورد المظالم. انظر: ابن خليكان، أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار: صادر، (٢/ ١٥٧).

وفي القرن الثاني عشر دفع ابن باجه[١] وابن الطفيل[٢] وابن رشد[٣] الفكر الفلسفي إلى آفاق لم يبلغها قط منذ العصر الكلاسيكي. هذا السرد الماضي هو المجمل الفلسفي العظيم الذي تعودنا على تسميته بالعربي؛ لأنه كتب بالعربية، وهو في الحقيقة يوناني – ساساني، والأقرب إلى الصواب أنْ نقول بأنه يوناني، لأنَّ العنصر الخصب في كلٍّ هذا كان قد جاء من اليونان. إذن اليونان هي المنبع الوحيد للعلم والفكر المستقيم.[٤] رينان يجيب على تساؤل لم يذكره، فقال: إنَّ تفوق سوريا وبغداد على الغرب اللاتيني جاء نتيجة لما كنا نلمسه لديهما فحسب من اقتراب شديد من التراث اليوناني؛ لذا وجدنا أعمال أرسطو وإقليدس وبطليموس في حران وبغداد ولم نجده في فرنسا، آه لو أنَّ البيزنطيين كانوا قد اختاروا أنْ يكونوا حراساً أقل غيرة على الخزائن التي لم يكن يقرؤونها آنئذ إلا قليلاً، أو كان لدينا رجالاً من أمثال بيساريون ولاسكاريس منذ القرن الثامن والتاسع، لما احتجنا إلى هذه الدورة الغريبة التي عملت على أنْ يصلنا العلم اليوناني في القرن الثاني عشر مرورا بسوريا وبغداد وقرطبة وطليطلة.

---

١. ابن باجه محمد بن يحيى (ت: ٥٣٣هـ) وقد يعرف بابن الصايغ، فيلسوف وطبيب ورياضي وشاعر وموسيقي، أندلسي تأثر بأرسطو والفلاطونية المحدثة، استوزر طويلا لدولة المرابطين، مدحه قوم وذمه آخرون حتى رمي بالإلحاد، أخذ عنه ابن رشد الحفيد وابن الإمام الكاتب، من مؤلفاته: تدبير المتوحد، النفس، النبات. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات (١/ ٢٤٩)، وكذا: الطرابيشي، معجم الفلاسفة، ص١٨.

٢. ابن الطفيل محمد بن عبد الله (٤٩٤– ٥٨٠هـ) فيلسوف وشاعر وموسيقي مغربي، اشتهرت رسالته حي بن يقظان الذي يصور فيه ارتقاء الإنسان التدريجي حتى يتحد بالإله والسعادة، انظر: الطرابيشي معجم الفلاسفة، ص٣٠.

٣. ابن رشد محمد بن أحمد القرطبي (٥٢٠– ٥٩٥هـ) فيلسوف وفقيه ورياضي عربي، ولي القضاء ثم تبحر بفلسفة أرسطو شرحاً ثم زاد عليها، خالف الإمام الغزالي في تهافت الفلاسفة، حاول كثيرا التوفيق بين الشريعة والفلسفة، من مؤلفاته: بداية المجتهد بالفقه المالكي، الكليات، فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال. انظر: الطرابيشي، معجم القلاسفة، ص ٢٣.

٤. دحض الفيلسوف الأمريكي ول ديورنت هذه الفكرة وأرجع الفضل لأصحابه وقال كفى تعصبا وعنصرية بكتابه الشهير قصة الحضارة (مطبوع ومترجم)، حيث أرجع المنبع إلى الشرق وخصوصاً حضارة وادي الرافدين والنيل. الباحث.

يبدو أنَّ هناك شكلا من العناية الإلهية السرية[١] تعمل على أنْ تجد شعلةُ العقل الإنساني التي تبدأ في الأفول على أيدي شعب شعباً آخر يقوم بالتقاطها ويعيد إشعالها عندما يعطي قيمة كبرى للعمل – وبغير هذا فلنْ يكون إلا الظلام– على يد هؤلاء السوريين المساكين والفلاسفة المضطهدين والحرانين،[٢] عملت الترجمة العربية لكتب العلم والفلسفة اليونانية على أنْ تستقبل أوربا خميرة التراث القديم الضروري لتفتح عبقريتها بالفعل، عندما كان ابن رشد يحتضر في المغرب بين الحزن والإهمال كان غربنا في أقصى اليقظة. ثم تحدث رينان عن الصيحات العقلانية الناهضة في أوربا حتى وصلوا إلى التحرر الكامل للعقل الإنساني، مثل أبيلار،[٣] وليفيفر دي إيتابل،[٤] وبيديه،[٥] وجيربير[٦] الذي شكك رينان في جولاته بين المسلمين.[٧] ثم مدح قسطنطين الأفريقي[٨] الذي كان متفوقاً على معارف عصره وبلاده؛ لأنه تلقى تعليماً إسلامياً. ثم تم

١. هذه فكرة جبرية رينانية، سنعلق عليها لاحقا. الباحث.

٢. لاحظ أن رينان يتجنب ذكر العرب وفضلهم في إدارة هذه المرحلة .

٣. بيير أبيلارد (١٠٧٩– ١١٤٢م) عالم أديان وفيلسوف اسكولائي فرنسي، أسهم في فكر العصور الوسطى، تكلم حول مفهوم الكلياتوهل له وجود خارجي أو لا،فأقر المذهب الإسمي فيها خلافا لمذهب الواقعية، من مؤلفاته: الأخلاق، المع والضد،. انظر: الطرابيشي، معجم الفلاسفة، ص ٤٢.

٤. جاك ليفيفر (١٤٥٠– ١٥٣٦م) عالم أديان إنساني، أثار الشكوك حول المقدسات، لذا يعتبر من رجال الفكر الإصلاحي. انظر: موقع الموسوعة الحرة – ويكيبيديا.. ملاحظة: إذا لم أجد الترجمة في المطبوع أضطر إلى الترجمة من الموسوعة الحرة ويكيبيديا.

٥. جويوم بيديه (١٤٦٧– ١٥٤٠م) لم أجد له ترجمة. الباحث.

٦. جيربير دورياك (٩٣٨– ١٠٠٣م) عالم لاهوتي يعرف بـ سلفستر الثاني، تبحر بالعلوم الرياضية والنحو والجدل والموسيقى والموسيقى والفلك. انظر: موقع الموسوعة الحرة – ويكيبيديا.

٧. هذا ديدن الفلاسفة الغربيين يرفضون أي صلة وتأثير عربي في فلسفتهم، وإذا اضطروا قالوا: إلا ما كان شخصياً فردياً. الباحث.

٨. قسطنطين الأفريقي (١٠١٥– ١٠٨٧م) ولد في قرطاجه تنقل في البلاد الإسلامية وبرع في الطب، اعتكف في دير ثم تنصر ومات بإيطاليا، من ترجماته، كامل الصناعة لعلي بن عباس وغيرها، ظلت ترجماته تستخدم في إوربا للقرن ١٧ م، انظر: الموسوعة الحرة – ويكيبيديا.

تم إنشاء معهد نشط للترجمة عام (١١٥٠م) في مدينة طليطلة[١] تحت إشراف الأسقف ريمون،[٢] وهذا المركز هو الذي نقل للاتينية أهم العلوم العربية، ومع بداية القرن الثالث الثالث عشر دخل أرسطو العربي إلى جامعة باريس منتصراً وتحرر الغرب من نقصه في أربعمائة أو خمسمائة سنة مضت، حتى هذه اللحظة كانت أوربا من الناحية العلمية خاضعة للمسلمين، لكن في عام (١٢٧٥م) ظهرت بوضوح تساقط البلدان الإسلامية في التراجع الفكري بينما أوربا بدأت في طريق البحث العلمي الطويل عن الحقيقة والذي لا يمكن قياس أبعاده بعد. ويل لمن يصبح بلا جدوى للتقدم الإنساني، يمكن أنْ يمحى في الحال. وصل ابن رشد للمدارس اللاتينية بشهرة أرسطو، بينما قد تم نسيانه عند مشاركيه في الدين. ظلت الفلسفة مضطهدة في المجتمع الإسلامي حتى لم يبق فيلسوف عربي ذو سمعة، وفي عام (١٢٠٠م) انتصرت الرجعية الدينية تماماً في إلغاء الفلسفة في البلدان الإسلامية، فأُتلفت المخطوطات الفلسفية وأصبحت نادرة، ولم يتسامح مع علم الفلك إلا من جهة تحديد القبلة، حتى أصبحت الفلسفة ذكرى، بل وذكرى سيئة. ثم هيمن الجنسُ التركي على الإسلام وغاب العقلُ الفلسفي بصورة كاملة ولم يعد في الإسلام أي عقل متحرر إلا من بعض الاستثناءات النادرة كابن خلدون.[٣]

يقول رينان: سادتي أنا لا أبخسُ حقَّ العِلم العربي الذي سجل مرحلة في العقل الإنساني، ولكننا غالينا في أصالة بعض النقاط. يمكن أنْ نحدد العصر العربي إنه

---

١. طليطلة مدينة كبيرة بالأندلس وهي مدينة الملوك تقع على ضفة نهر كبير وفيها عجائب الصنائع والإبداع، انظر: الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، مصدر سابق ، ١٩٨٠م، ص ٣٩٣.

٢. الأسقف ريمون هو رئيس الأساقفة في طليطلة أنشاء مركزا للترجمة بعد سقوط بلاد الأندلس ١١٣٠م، وكان المستعربون من أصل أندلسي أكبر المساهمين في حركة الترجمة، وكان لهذا المركز الفضل في نقل العلوم العربية والإسلامية إلى أوربا. انظر: الموسوعة الحرة – ويكيبيديا.

٣. ابن خلدون عبدالرحمن بن محمد (٧٣٢– ٨٠٨هـ) المغربي التونسي ولادة الأشبيلي أصلا القاهري نزلا المالكي مذهبا، اشتهر كقاضي ومؤرخ منصف، من أهم مؤلفاته: التاريخ الكبير. انظر: ابن العماد، شذرات الذهب، (٧/ ٧٦).

العصر بين اختفاء الحضارة القديمة سنة (٦٠٠م) وميلاد العبقرية الأوربية تقريبا (١٢٠٠- ١٣٠٠م)، وقد تشكل في هذه الفترة التراث العقلي الإنساني من خلال المناطق التي غزاها الإسلام. هذا العِلم الذي يسمّى بالعربي هل هو في حقيقة الأمر عربي ؟ اللغة العربية فقط ولا شيء غير اللغة، فقد نقل الغزو لغة الحجاز إلى آخر العَالم، كما حدث للغة اللاتينية التي نُقلتْ لكلِّ الغرب، حتى أصبحت هي المعبرة عن المشاعر والأفكار. من الخطأ أنْ نضيف العِلم والفلسفة العربية لحساب الجزيرة العربية، كالخطأ إذا أضفنا كلَّ الآداب المسيحية للاتينية. من الخطأ أنْ نقول ابن رشد وابن سينا والباطني[١] كانوا عرباً، ونقول إنَّ ألبير الكبير[٢] وروجيه بيكون[٣] وفرنسيس بيكون[٤] وسبينوزا[٥] كانوا لاتينيين. إنَّ الوحيد بين صفوف الفلاسفة والعلماء الذين يطلق عليهم عرباً هو الكندي من أصل عربي، بينما ينتمي الآخرون جميعهم إلى فارس وما وراء النهر وإسبانيا وبخارى وسمرقند وقرطبة وأشبيلية، ليس فقط لأنهم ليسوا عرباً من ناحية الدم بل لأنه ليس لديهم شيء عربي من جهة العقل، استخدموا اللغة العربية إلا

١. محمد بن عبدالله بن مرة الجبلي القرطبي الباطني (٢٦٩- ٣١٩هـ) كان شغوفا بفلسفة أبيدقليس أول حكماء اليونان الذي قال إن الواحد بالحقيقة لا تكثر فيه وعليه بنت المعتزلة قولهم في نفي الصفات. انظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٢٩، وكذا: القفطي: أخبار العلماء بأخيار الحكماء ، ص١١.

٢. ألبير الكبير (١٢٠٦- ١٢٨٠م) عالم لاهوتي فلسفي ألماني، بدأ اسكولائيا يونانيا أرسطويا، ثم أبدع بالعلم التجريبي، وكان سببا في ظهور تلميذه وصديقه توما الأكويني، انظر: الطرابيشي، معجم الفلاسفة، ص٨٦.

٣. روجيه بيكون (١٢١٤- ١٢٩٤م) الراهب الفيلسوف الإنكليزي الذي تمعن في العلم الطبيعي وهز فلسفة أرسطو، أهم مؤلفاته: المختصر في الدراسات اللاهوتية. انظر: الطرابيشي: معجم الفلاسفة، ص ٢٢٤.

٤. فرنسيس بيكون (١٥٦١- ١٦٢٦م)فيلسوف إنكليزي صاحب المنهج التجريبي الاستقرائي، رتب جداولاً في التحليل، غير بموجبه العلم الطبيعي فكان علامة فارقة لتحول الفلسفة من العصر الوسيط الاسكولائي إلى عصر النهضة، من أهم مؤلفاته: الأرغانون الجديد. انظر: الطرابيشي: معجم الفلاسفة، ص ٢٢٦.

٥. باروخ اسبينوزا(١٦٣٢- ١٦٧٧م) فيلسوف هولندي الموطن، يهودي الديانة، فرَّ أهله من إسبانيا لِما كانوا يلاقونه من الاضطهاد الشديد، قال إن الله والطبيعة شئ واحد، والله ليس إلا النظام الكوني، ومن مؤلفاته: رسالة لاهوتية فلسفية، الأخلاق، رسالة في إصلاح العقل. انظر:، بدوي: عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، دار: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج١، ص١٣٦.والموسوعة تتألف من ثلاثة أجزاء كبيرة .

أنها أعاقتهم كما أعاقت اللغة اللاتينية مفكري العصور الوسطى؛ لأنَّ اللغة العربية تصلح للشعر ولبعض البلاغة، فهي أداة غير صالحة للميتافيزيقيا، وعموما وبشكل عام يعتبر الفلاسفة والعلماء العرب كتابا من النوع الرديء.

إلى هنا أثبتنا أنَّ العلم ليس عربياً... الآن هل الإسلام دعم الفلسفة و العلم ؟؟

يقول رينان مجيباً: على الإطلاق فهذه العلوم ليست عربية، والحركة المتقدمة للدراسات كانت من نتاج الفرس والمسيحيين واليهود والحرانين والإسماعيلين والمسلمين المتمردين في داخل دينهم، بل لم تتلق هذه الحركة من المسلمين الأصوليين إلا اللعن والطرد وحرق الكتب ورميها في الآبار واتهامهم بالزندقة وضربهم في الطرقات، بل إن المأمون على ما قدم من انفتاح في ترجمة علوم اليونان لعنه علماء الدين بلا رحمة واعتبروا الصائب في حكمه عقابا من الله تعالى لتسامحه مع المذاهب الدخيلة على الإسلام، إذن حقيقة الأمر أنَّ الإسلام اضطهد العلم والفلسفة. لكن علينا التمييز بين عصرين في تاريخ الإسلام:

العصر الأول: من نشأته حتى القرن الثاني عشر أي تقريباً من سنة (٦٠٠-١٢٠٠م) كان لمشايعيه الأُول قوة في الإيمان وكانوا بالكاد يعتقدون برسالة النبي، وكاد الشك يكون مستترا خلال قرنين أو ثلاثة، في هذا العصر لغمته الفرق الدينية وتم تخفيف غلوائه عن طريق نوع من البروتستانتية (وهو ما نسميه بمذهب المعتزلة)

كان الإسلام ليبراليا عندما كان ضعيفاً وعنيفاً عندما كان قوياً، وعندما كان الإسلام أقل تنظيماً كان أقل تعصباً؛ لأنه لم يستطع منع الفلسفة، أكرر ذلك فالإسلام احتمل الفلسفة؛ لأنه لم يستطع منعها، حيث إنه كان قليل الجاهزية للإرهاب، وكانت الشرطة بأيدي المسيحيين وكان ما يشغلها بالدرجة الأولى هو ملاحقة مساعي العلويين، ومن خلال ثقوب هذه الشبكة الرخوة كانت تمر أمور كثيرة.

العصر الثاني: من القرن الثالث عشر إلى يومنا هذا (وقت إلقاء المحاضرة ١٨٨٣م)، وهو عصر الحكم المطلق للدوغمائية[١] دون أي فصل ممكن بين الروحي والزمني[٢]، وقع الإسلام في هذا العصر في أيدي جنسي التتر والبربر، وهي أجناس غليظة فظة جاهلة، هو عصر قهر وعقاب بدني لمن لا يقيم العبادات، وهو نظام لم يتجاوزه إلا محاكم التفتيش الإسبانية، جرحت الحرية جرحا عميقاً في هذا العصر عن طريق تنظيم اجتماعي دوغمائي هيمن على الحياة المدنية تماماً.

مثل رينان للعصر الثاني الدول الإسلامية التي يخضع لها بلدان واسعة على كوكبنا، وهي متمسكة بالفكرة الأكثر تعارضا مع التقدم، وهي فكرة الوحي المزعوم التي جعلته دوغمائياً.

الليبراليون الذين يدافعون عن الإسلام لا يعرفونه حق المعرفة، فالإسلام هو الوحدة غير المنفصلة بين الروحي والزمني إنه السلسلة شديدة الغلظة التي لم تتقيد بها الإنسانية أبدا من قبل.

إذن الإسلام حارب الفلسفة فكيف نمنحه الشرف على ما لم يستطع منعه، أي نصف الفلسفة بأنها إسلامية، مثله كمثل لو أننا منحنا الشرف لرجال الدين على اكتشافات العلم الحديث، فهذه الاكتشافات تمت رغم أنف رجال الدين.

إذن اللاهوت الإسلامي واللاهوت الغربي لا يستحقان المدح والشرف؛ لأن الفلسفة ظهرت رغم أنوفهم، فهل نمنحهم الشرف لأنهم لم يستطيعوا إلغائها، لم يستطيعوا سحق العقل في بلدانهم، فلا ينبغي الامتنان لها؛ لأن القاتل لا يرث، لا

---

١. الدوغمائية: تعني الاعتقاد بلا دليل، أو المتمسك بالشيء بلا نقاش ونظر، والكلمة حاليا تستخدم من قبل التيار الحداثي كسُبة ضد الإسلام التقليدي والمتحجر كما يزعمون. الباحث.

٢. الروحي يعني الاعتقاد والزمني يعني المعاش الآني. الباحث.

ينبغي أن ينتفع المضطهِدون بما قاموا به من اضطهاد، وهذا ما نفعله إذا أسندنا للإسلام حركة الفلسفة التي خرجت رغم أنفه، لو منحنا شرف فلسفة ابن سينا وابن زهر وابن رشد للإسلام فكأنما منحنا شرف علم جاليلو للكاثوليك.

مع هذا فالإسلام له جوانبه الجميله، فأنا لم أدخل مسجداً دون تأثير عميق، أقولها دون بعض من الأسف على أني لست بمسلم، إلا انه بالنسبة للعقل الإنساني، فالإسلام لم يكن إلا ضاراً، فقد أغلق العقول عن التنوير، واضطهد الفكر الحر بكفاءة بالغة، لقد جعل البلدان التي حكمها مغلقة أمام الثقافة العقلانية.

إن مما يمتاز به المسلم في الواقع هو كراهيته الشديدة للعلم، واقتناعه بأن البحث فيه لا جدوى منه، فعلم الطبيعة عنده كفر وباطل؛ لأنه منافس لله، وعلم التاريخ باطل لأنه ينطبق على عصور ما قبل الإسلام فيمكنه إعادة إحياء الضلالات القديمة.

استشهد رينان بالشيخ رفاعة الطهطاوي[١] الذي أقام عدة سنوات في باريس وعند عودته ألف كتابا ملياً بالملاحظات عن المجتمع الفرنسي، فكرته الرئيسية كانت هي أنَّ العِلم الأوربي في استمرارية القوانين الطبيعة هي بدعة[٢] علينا أن نقول إن الطهطاوي لم يكن مخطئاً تماماً من جهة نظر الإسلام، فالدوغمائية المنزلة تظل دائماً في تعارض

---

١. رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١– ١٨٧٣م) عالم مصري تخرج من الأزهر، أرسلته الحكومة مع بعثة الطلاب إماما لهم في فرنسا، عاد وولي رئاسة الترجمة في المدرسة الطبية، وأنشأ جريدة الوقائع المصرية، ثم ألف وترجم عدة كتب، منها تلخيص الإبريز في رحلته لفرنسا، أصبح رائد للنهضة العلمية الحديثة في مصر. انظر: الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، (٣/ ٢٩).

٢. إشارة إلى اعتقاد المذهب التجريبي المادي أن السبب لا يتخلف عن المسبب، وعقيدة أهل السُنة والجماعة تنص على أن المسبَب يحدث عند السبب لا به؛ ليحافظوا على أن الأشياء غير مؤثرة بطبعها، والمؤثر الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى فهو الفاعل باختيار. الباحث.

مع البحث الحر،[١] الذي يمكن أن يكذبها.[٢] يقول رينان: العلم والبحث يُبعد ما هو إلهي عن عالم الوقائع الخاصة، بينما يعتقد المرء الرؤية الإلهية فيها، عملت التجربة على تراجع ما فوق الطبيعي وتقييد مجاله، إن أساس كلَّ دين هو ما فوق الطبيعي، فجاء العلم يفصل ما هو طبيعي وما هو غير طبيعي، لكن الإسلام تعامل مع العلم كأنه عدو، كأنه اعتداء على حقوق الله، وبهذا نجح الإسلام عندما قتل العلم، قتل نفسه، وحكم على نفسه في العالم بالدونية الكاملة، الإسلام عندما فعل ذلك وصل حتما إلى الكسل العقلي وإلى انعدام الوضوح وإلى انعدام الدقة. ساق رينان حكاية طريفة في نهاية محاضرته ولكن لها مدلول حاضر عما تكلم به، فقد سرد قصة رجل عقلاني غريب زار مدينة الموصل وأراد أن يعرف معلومات عن المدينة من تاريخها وتجارتها وأهلها، فتوجه إلى القاضي، فقال مجيباً: يا صديقي يا فرحة الأحياء إن ما تسألني عنه هو مما لا جدوى منه، وهو ضار عشت عمري لا أعرف عدد منازل المدينة ولا عدد سكانها ولا كم يملكون من تجارتهم، وليس لي الحق في معرفة ذلك، أما التاريخ القديم للمدينة فالله وحده أعلم ووحده القادر على معرفة آثامهم قبل الفتح الإسلامي، يابني كل ما سألتني لا فائدة منه، ولكن اسمع فلا حكمة قط تساوي الإيمان بالله، فالله خلق الدنيا فهل نحاول مساواته عندما نبحث عن اختراق أسرار خلقه ؟ ..... ثم قال له في الختام: يا صديقي لو أردت أن تكون سعيداً قل لنفسك: الله وحده هو الله، لا تفعل أبدا شراً، عندئذ لن تخشى أحدا لا الناس ولا الموت لأن ساعتك آتية. قال رينان معلقاً على القصة: هذا القاضي الموصلي فيلسوف على طريقته، ولكن نتاج عقل كهذا خطيرة

١. اثبت العلم الحديث صدق المقولة الإسلامية، أن الاستمرارية لا تثبت الإلزام الضروري وإنما تثبت العادة المتكررة ليس إلا. انظر: البروفيسور الطائي: محمد باسل، دقيق الكلام الرؤيا الإسلامية لفلسفة الطبيعة، دار: عالم الكتب الحديث. ط١، ٢٠١٠م، ص٢٤٤.

٢. لكننا رأينا البحث الحر يؤيد العقائد الإسلامية ولا يكذبها. وهذا ما سنزيد عليه لاحقا. الباحث.

على المجتمع؛ لأنه يؤدي إلى انعدام العقل العلمي، وانعدامه يؤدي إلى الخرافة والنزعة الدوغمائية، والثانية هي مصيبة الشرق وداءه الأكبر. إنَّ العلم هو روح المجتمع، إنَّ العلم هو العقل، العلم هو الذي يخلق التفوق العسكري والصناعي، وسيخلق يوما ما التفوق المجتمعي، إنَّ هدف الإنسانية ليس الراحة في جهل مستسلم، ولكنه الحرب الشعواء ضد الخطأ ومقاومة الشر. أشار رينان للتشابه بين الزحف الإسلامي والجيوش البربرية في أسيا، مثل الجحافل الكبرى لآتيلة [١] وجنكيز خان[٢]، ثم قال: لو واجه عمر[٣] أو جنكيز خان مدفعية فعالة لما أمكنهما تجاوز صحرائهما، ولسد العلم عليهم الطريق، كم من مرة اعترضنا على صناعة الأسلحة النارية التي ساهمت في انتصار الحضارة، في رأيي لديَّ القناعة بأنَّ العلم مفيد؛ لأنه السبيل الوحيد الذي يمدنا بالسلاح ضد الشر، ذلك الشر الذي يمكن أن نصنعه بالعلم أيضاً[٤]، إلا أنه بالقطع لن يفيد العلم إلا تقدماً، أقصد التقدم الحقيقي، الذي لا ينفصل عن احترام الإنسان والحرية.

انتهت المحاضرة [٥].

---

١. أتيلا الهوني (٣٩٥- ٤٥٣م) حاكم أمبراطورية الهون امتدت من نهر الفولكا شرقا إلى غرب ألمانيا، اشتهر بقوته وغزواته الكبيرة والكثيرة. انظر: موقع الموسوعة الحرة – ويكيبيديا.

٢. جنكيز خان قائد المغول من شعوب التتر بسط سيطرته على أقاليم الصين الستة فأصبح القان الأعظم ثم توجه إلى بلاد خوارزم وما والاها وأكمل أبنه هولاكو الفتوحات. انظر: العصامي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، (٢/ ٢٥٢).

٣. عمر بن الخطاب بن نفيل من بني كعب بن لؤي القرشي ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة، كان شريفا وسفيرا لقريش في الجاهلية، أسلم بعد أربعين رجلا فظهر به الإسلام، أصبح خليفة للمسلمين بعد أبي بكر ﷺ، توفي مطلع سنة ٢٤هـ. انظر: أسد الغابة، ص٨١٥.

٤. فلسفة العلم وصناعة الشر تحتاج إلى بحث خاص. الباحث.

٥. الإسلام والعلم – مناظرة رينان والأفغاني: ترجمة ودراسة مجدي عبد الحافظ، المركز القومي للترجمة، إشراف جابر عصفور، ط٢، ٢٠٠٩م، ص٣٣- ٤٩.

المبحث الثالث
أبرز ردود الأفغاني على رينان

في يوم ١٨ مايو (مايس) عام ١٨٨٣م، أي بعد خمسين يوماً من مقال رينان، نشرت جريدة Debats الفرنسية تعليق الأفغاني، وهذا تهذيبه وفحواه:

بدأ الأفغاني بمدح جريدة Debats الفرنسية التي حولت المحاضرة التي ألقاها الفيلسوف رينان في جامعة السربون إلى مقال في أعمدتها، ثم مدح الفيلسوف رينان بقوله: فيلسوف عصرنا الكبير والشهير السيد رينان الذي طبقت شهرته الغرب كلَّ، بل وغزت شهرته أبعد بلدان الشرق.

قال الأفغاني: إنَّ السيد رينان أراد أن يوضح نقطة من تاريخ العرب ظلت حتى الآن معتمة، ولتصدقوني أنه لم يسع إلى هدم مجد العرب التليد، بل التزم الكشف عن الحقيقة التاريخية والتعريف بها لمن يجهلونها ممن يتعقبون آثار الديانات في تاريخ الأمم وخاصة تاريخ الحضارة.

قال الأفغاني: عليَّ المبادرة والاعتراف بأن السيد رينان قد أوفى بشكل رائع هذه المهمة الشديدة الصعوبة عندما ذَكَّر ببعض الأحداث التي مرت مرور الكرام.

ثم قدم الأفغاني التحية للفيلسوف الكبير مرة ثانية مؤكدا احترامه والإعجاب به، وامتثل له بيت المتنبي :

لا خيل عندك تهديها ولا مال ـــ فليُسعف النطقُ إن لم تُسعف الحالُ

لخص الأفغاني أهم أفكار رينان في محاضرته بنقطتين رئيستين:

١-الدين الإسلامي كان في جوهر ذاته معارضاً لتقدم العلم.

٢-الشعب العربي بطبيعته لا يحب الميتافيزيقيا ولا الفلسفة.

تسأل الأفغاني بعد عرض أهم أفكار رينان: هل ما ذكره رينان من مآخذ كان سببه الدين الإسلامي فقط ؟ أو سببه طبيعة الشعوب المعتنقة له ؟ أو سببه الشعوب التي فرض عليها ؟

قال الأفغاني: إن السيد رينان لم يوضح هذه الأسباب، واعتذر عنه بسبب قلة الوقت، ولكنَّ الأفغاني اعترف بأنَّ الداء موجود.

جواب الأفغاني عن النقطة الأولى (الدين الإسلامي لذاته معارض للعلم):

قال: الأمم في منشأها غير قادرة على الانقياد بالعقل المحض، غير قادرة على تمييز الخير من الشر، غير قادرة على معرفة طريق سعادتها؛ لأنها عاجزة عن تحليل الأسباب التي تؤدي إلى النتائج.

قال: إذن على الإنسانية أن تبحث خارج ذاتها عن الملاذ الذي تجد راحتها فيه، عندئذ ظهر معلم ما [١] – وأقول بصوت عال – ليس لهذا المعلم القدرة الضرورية على إرغامها لإتباع صوت العقل؛ فألقى بها في المجهول، وفتح لها الآفاق العريضة في الخيال، وسيلبي رغباتها إن لم تكن كاملة فعلى الأقل مجال لا محدود من آمالها.

ثم ذكر الأفغاني سبب انقياد الأمم للأنبياء والمعلمين، فقال:

١–جهل الإنسانية في منشأها أسباب الأحداث التي تمر أمام عينها، وأسرار الكائنات[٢].

٢–فرضت على الإنسانية الطاعة لمربيها وأوامرهم باسم الكائن الأعلى الذي يُعزى إليه كلُّ الأحداث دون السماح لهم بمناقشة منافعها وأضرارها.

---

١. بعد قليل سيصرح أنهم معلمو الأديان (الإسلام ، اليهودية ، النصرانية) أو الوثنية. كل هذا وغيره سيخضع لنقدنا في المبحث الرابع. الباحث.

٢. كالعلة والمعول، والتوافق بين الكائنات . الباحث.

عقب الأفغاني شارحا مآل هذا النهج، قائلاً:

إني أعرف دون شك أنَّ ذلك مثَّل للإنسان نيراً شديد الوطأة والإذلال، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر أنَّ الإنسان بهذا التعليم الديني سواء كان إسلامياً أو مسيحياً أو وثنياً خرجت كلُّ الأمم من حالة البربرية واتجهت نحو الحضارة المتقدمة.[١]

يغير الأفغاني بعد هذا التوصيف طريقة مناظرته، فيبدأ بأسلوب التنزل مع الخصم والافتراض الشرطي، فقال:

إذا كان صحيحاً أنَّ الدين الإسلامي عقبة في وجه تطور العلوم، فهل يمكننا القول بأنَّ هذه العقبة لن تختفي يوماً ما ؟ وفي ماذا تختلف الديانة الإسلامية في هذه النقطة عن بقية الأديان الأخرى ؟

قال الأفغاني: كلُّ الأديان متعصبة، كلٌّ على طريقته، فالديانة المسيحية أقصد المجتمع الذي اتبع إرشاداتها وتعاليمها والذي شكلها على صورته خرج من العصر الأول الذي ألمحت إليه تواً (كون الأديان عقبة)، فأصبح حراً مستقلاً يتقدم بسرعة نحو طريق التقدم والعلوم.

بينما لم يتحرر المجتمع الإسلامي بعد من وصايا الدين،[٢] بيد أني أعي أنَّ الديانة المسيحية قد سبقت الديانة الإسلامية بعدة قرون، فلا يسعني إلا أن آمُل في أن يصل المجتمع المحمدي ذات يوم إلى أن يحطم قيوده، ويقدم بتصميم على طريق الحضارة على غرار المجتمع الغربي، والذي لم تكن لديه (أي المجتمع المحمدي)

---

١. أي أن الأفغاني يصرح بأن تعاليم الأنبياء أو المعلمين كانت نيراً وإذلالاً من جهة، وكانت مخرجاً من حالة البربرية إلى الحضارة من جهة أخرى. الباحث.

٢. كلام الأفغاني سنة ١٨٨٣م، وما زال يقول: الإسلام لم يتحرر بعد من وصايا الدين. الباحث.

العقيدة المسيحية بالرغم من تزمتها وتعصبها عقبة لا تقهر، ولا أستطيع التسليم بأن هذا الأمل بعيد المنال بالنسبة للإسلام.

وأدافع هنا لدى السيد رينان بأنه ليس بسبب الدين الإسلامي؛ ولكن بسبب عديد المئات من ملايين الرجال الذين حُكم عليهم بالعيش في البربرية والجهل.

بعد هذا القول من الأفغاني الذي يفهم منه أنه يدافع عن الدين الإسلام، صرح بما يأتي:

في الحقيقة قد حاولت الديانة الإسلامية خنق العلم وإيقاف التقدم، كذلك قد نجحت في عرقلة الحركة الفكرية أو الفلسفية، وفي تحويل العقول من البحث في الحقيقة العلمية.

ثم ذكر الأفغاني أنَّ هذا حدث سلفاً من قبل الديانة المسيحية ورؤسائها الأجلاء حيث مازالوا يناضلون بصرامة ضد ما يدعونه روح الضلال والتضليل.

وذكر صعوبة الطريق أمام المسلمين؛ لأنَّ طريق المناهج الفلسفية والعلمية هي المدخل للحقيقة وقد سُدَّ دونهم؛ لأسباب منها:

١-المسلم مشدود إلى عقيدة قد استرقته كالثور إلى المحراث، فجعلته يمشي في نفس الخط الذي رسمه له شرَّاح الشريعة.

٢-المسلم مقتنع بأنَّ دينه يشتمل على كلِّ الأخلاق والعلوم.

٣-المسلم يعتقد أنه يملك الحقيقة.

٤-المسلم لا يبذل جهداً للخروج عن الدين مادام الدين يمتلك الحقائق، فلماذا يهدر جهوده في هذه المحاولات الفاشلة ؟ ما يجديه البحث عن الحقيقة طالما يعتقد أنه يمتلكها كاملة !

ثم علق الأفغاني عما مضى من كلامه، متسائلاً: هل سيكون المسلم سعيداً في اليوم الذي يتخلى فيه عن إيمانه ؟ يتخلى فيه عن أنه يمتلك الكمالات ؟

أنا أعرف كلَّ هذا، وأعرف أنَّ الطفل المسلم والعربي الذي رسم السيد رينان صورته بصورة صارمة (وصف رينان سابقا الطفل العربي لحد ١٢ سنة بأنه نبه ثم يتحول فجأة إلى متعصب مفعماً بعزة بلهاء بسبب امتلاكه الحقيقة المطلقة) سيغدو في عمر أكثر تقدماً ينتمي لجنس (الجنس السامي نسبة إلى سام بن نوح)[١] قد رسم طريقه في العالم ليس فحسب بالنار والدم بل أيضاً بأعمال باهرة وخصبة تبرهن على ميله للعلم ولكل العلوم بما فيها الفلسفية، والحق يقال إنه لم يستطع أن يتعايش معها طويلاً.

جواب النقطة الثانية: العرب لا يحبون الفلسفة.

بدأ الأفغاني بمدح رينان وأنه تناول النقطة الثانية باقتدار لا شك فيه، ثم مدح الشعب العربي لانتقاله السريع من الجاهلية إلى التقدم الفكري والعلمي؛ لأنه خلال قرن اكتسب وتمثل تقريباً كلَّ العلوم الإغريقية والفارسية وبسط هيمنته من شبه الجزيرة العربية إلى جبال الهمالايا وقمة جبال البرانس.

وفي هذه الفترة قد حققت العلوم تقدماً مذهلاً لدى العرب وفي كلِّ البلدان التي خضعت لهيمنتهم.

ثم أشار الأفغاني إلى سيرة الحضارة في التاريخ وكيف كانت روما وبيزنطة معقلاً للعلوم اللاهوتية والفلسفية بل لكل العلوم الإنسانية، ثم دالت دولتهم فأهملت البحوث وانهارت المعالم العلمية وطوى النسيان مؤلفاتهم الثمينة.

---

١. يصف بعضُ الفلاسفة المتعصبين ومنهم رينان: أن الجنس السامي ليس له قابلية التفكير والتحليل المركب. الباحث.

ثم استأنف العرب رغم جهلهم وجاهليتهم قبل الإسلام مشعل الحضارة، فأحيوا ما أهملته الأمم المتحضرة، وأعادوا الحياة للعلوم الهامدة فطوروها وأعطوها وهجاً لم يكن لها قط.

استفهام جميل من الأفغاني: أليس هذا مؤشراً ودليلاً على حبهم الطبيعي للعلوم ؟ صحيح أنَّ العرب قد أخذوها عن اليونان والفرس بحقِّ الفتح إلا أنهم طوروها ووصلوا بها إلى الكمال شرحاً وتصنيفاً ثم نشروها.

استفهام آخر جميل من الأفغاني: إنَّ فرنسا وألمانية والإنكليز كانوا أقرب لعلوم روما وبيزنطة من العرب وعاصمتهم بغداد، فلماذا لم يحاولوا ولم يقدموا أي جهد نحوها.

استفهام ثالث من الأفغاني: الأوربيون استقبلوا بحرارة أرسطو المهاجر الذي أصبح عربياً [١] إلا أنهم لم يفكروا فيه بالمرة عندما كان إغريقياً وجاراً لهم، وهذا برهان آخر ليس بأقل بداهة على التفوق العقلي للعرب وارتباطهم الطبيعي بالفلسفة.

إنَّ السيد رينان قد ردَّ هذا الحقَّ للعرب فهو يعترف بأنهم قد حفظوا ورعوا العلم لقرون، وأيُّ مهمة أنبل من تلك لشعب من الشعوب، فهو اعترف بخمسة قرون امتازت فيها الدول الإسلامية حيث كانت الأرقى في الثقافة العقلية مقارنة بالعالم المسيحي.

توجه الأفغاني هنا للرد على شبهة رينان أنَّ علماء المسلمين هم من الفرس وبلاد حران وقساوسة سوريا وبلاد الأندلس، فقال: لا أود أنْ أنكر الخصال العظيمة لعلماء الفرس، ولكن ليسمح لي السيد رينان بالقول إنَّ الحرانيين كانوا عرباً، وإنَّ العرب عندما احتلوا أسبانيا لم يفقدوا جنسيتهم إذ بقوا عرباً، فلقد كانت اللغة العربية ومن قرون

---

١. لأن أوربا عكفت على دراسة أرسطو من خلال شرح ابن رشد له، أي هجروه وهو يوناني ورحبوا به وهو عربي. الباحث.

عديدة قبل الإسلام هي لغة الحرانيين، واحتفاظهم بديانتهم القديمة الصابئة لا يجعلنا نعتبرهم أجانب عن الجنسية العربية، والقساوسة السوريون كانوا أيضاً في أغلبهم من العرب الغساسنة الذين تحولوا إلى النصرانية.

أما بالنسبة لابن باجة وابن رشد وابن الطفيل فلا يمكن القول بأنهم ليسوا عرباً بنفس القدر الذي للكندي؛ لأنهم لم يولدوا بجزيرة العرب ذاتها، خاصة إذا ما أردنا اعتبار أنَّ الأجناس البشرية لا تتميز سوى بلغتها.[١]

يقول الأفغاني: بلا شك أنَّ العقيدة الإسلامية في تغلغلها للبلاد التي فتحتها بالعنف الذي نعرفه قد نقلت إليها لغتها ومذهبها، وإنَّ هذه البلاد لم تستطع منذ ذلك الحين أنْ تتملص من تأثيرها.

ثم يستطرد الأفغاني في التحليل بطريقة السبر والتقسيم[٢]؛ ليثبت أصالة العلم العربي والفلسفة العربية، فقال: العرب لم يتغنوا بالعلماء الأعاجم؛ لأنه يمتلك قدراً كافياً منهم، ولو حللنا الفريق الذي كوَّن الشعب الغازي وتتبعانه خطوة خطوة، ونحذف منه كلَّ ما هو أعجمي، ثم نحذف منه تأثيره على العقول والعلوم، ثم ننظر في الباقي، ألن نكون هنا منقادين إلى التوقف عن الاعتراف للشعوب الفاتحة لأي مزايا وفضائل أخرى سوى واقعة الغزو المادي ؟ إذن ستدعي كلُّ الشعوب المهزومة بعد استقلالها المجد الذي لم تكن تدعيه سلفاً؛ لأنها كانت تحت السلطة التي أنتجت وطورت، هل يمكن

---

١. هذا ما يعارض فيه رينان لأنه يقول بالتمايز الجنسي. الباحث.

٢. السَبْر لغة: الاختبار والتجربة، واصطلاحاً: حصر الأوصاف في الأصل وإبطال ما لا يصلح؛ ليتعين ما بقى. انظر: المناوي: محمد عبد الرؤوف، تحقيق: محمد الداية، دار: الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ، ص٣٩٦.

لإيطاليا أنْ تعلن لفرنسا أنَّ مازاران[١] وبونابرت[٢] لا ينتميان إليها، وهل ستطالب ألمانيا وإنجلترا بدورهما بالعلماء الذين جاءوا لفرنسا فشرفوا منابرها، وأعلوا من عظمة سمعتها العلمية، ومن جهة فرنسا هل ستطالب بمجد سلالات العائلات الشهيرة التي هاجرت إلى سائر أوربا عقب مرسوم نانت.[٣]

نخلص مما مضى أنَّ الأفغاني يقول: إذا كان كلُّ الأوربيين على اختلاف دولهم ينتمون إلى نفس الأرومة فكذلك الحرانيين والسوريين هم ساميون ينتمون إلى العائلة العربية الكبرى. بعد هذا البيان من الأفغاني يتساءل، لماذا انطفأت الحضارة العربية بعد هذا الوهج الحي ؟ ولماذا لم يُعاد إضاءتها منذ ذلك الحين ؟ ولماذا العالم العربي قابع في الظلمات الحالكة ؟ الجواب: الأفغاني هنا يُحمل العقيدة الإسلامية المسؤولية الكاملة، فيقول: تبدو مسؤولية العقيدة الإسلامية هنا مسؤولية كاملة، إنه لمن الواضح أنَّ هذه العقيدة أينما استقرت حاولت خنق العلوم، واستخدمت بشكل رائع مقاصدها عن طريق الاستبداد.[٤] ضرب الأفغاني مثلاً من التاريخ الإسلامي يؤكد نظريته وتصريحه الخطير، قال:" حكى السيوطي أنَّ الخليفة الهادي أباد خمسة آلاف من الفلاسفة حتى يصل لهدم العلوم في البلدان الإسلامية " ثم علق على الرواية بقوله: مع افتراض أنَّ هذا المؤرخ قد بالغ في عدد الضحايا، فلن يبقى مؤكدا إلا أنَّ

---

١. جول مازاران (١٦٠٢– ١٦٦١م) كاردينال وسياسي ودبلوماسي لامع، أصبح رئيسا لوزراء فرنسا اعشرين عاما. انظر: موقع الموسوعة الحرة – ويكيبيديا.

٢. نابليون بونابرت (١٨٠٨– ١٨٧٣م) ملك فرنسا وقائد حملتها على مصر. انظر: موقع الموسوعة الحرة – ويكيبيديا.

٣. مرسوم نانت أصدره سنة ١٥٩٨م ملك فرنسا هنري الرابع، وهو أول إعتراف رسمي بالبروتستانت، ثم ألغاه الملك لويس الرابع عشر سنة ١٦٨٥م، وعلى أثره هاجر من فرنسا مئتا ألف شخص. انظر: موقع الموسوعة الحرة – ويكيبيديا.

٤. سننقل وصف رينان للأفغاني بأنه انفصل عن الإسلام في المبحث اللاحق. الباحث.

الاضطهاد قد وقع، ويا لها من مهمة دموية لتاريخ ديانة ما (يقصد الديانة الإسلامية)، ويمكنني أن أجد في ماضي الديانة المسيحية وقائع مماثلة، فالديانات من بعضها، تتشابه جميعها، فلا يمكن أن يكون هناك اتفاق أو مصلحة بين هذه الأديان والفلسفة.[١]

ضرب الأفغاني مثلا من تاريخ الديانة المسيحية، فقال: عندما دخلت المسيحية أثينا والإسكندرية وهما المدن العلمية آنذاك حاولت خنق العلم والفلسفة بأشواك النقاشات اللاهوتية؛ ليسنى لها شرح ما عصى عن الشرح كأسرار التثليث والتجسد وتحول القربان.

في الختام أطلق الأفغاني فلاشات رنانه، وهي:

كلٌ إيمان يكون خلفه الدين سوف يمحو الفلسفة، ويحدث العكس عندما تحكم الفلسفة وتكون السيدة الحاكمة.

متى وجدت الإنسانية فإنَّ الصراع لن يتوقف بين المبدأ الدوغمائي والاختيار الحر، أي بين الدين والفلسفة، صراع ضاري أخشى منه، فالانتصار لن يكون للفكر الحر؛ لأنَّ العقل يزعج الجمهور، ولأنَّ تعاليمه لايفهمها سوى قلة من أذكياء الخاصة، ولأنَّ العلم أيضا بكلِّ جماله المعهود لا يرضى تماماً الإنسانية تلك العطشى للمثال، والتي تحب الزراعة في المناطق المعتمة والبعيدة والتي لا يستطيع الفلاسفة ولا العلماء إدراكها أو اكتشافها.

انتهى المقال [٢]

جمال الدين الأفغاني

---

١. هذا الطرح يخالف ما صرح به الفلاسفة الكبار الذين سبقوه، بقولهم يمكن الجمع بين الدين والفلسفة، ولعل ابن رشد في كتابه فصل المقال لما بين الدين والفلسفة من اتصال وانفصال خير شاهد. الباحث.

٢. الإسلام والعلم ترجمة مجدي عبد الحافظ، مصدر سابق، انظر: ص٥٣- ٦٢.

المبحث الرابع
حفريات حول ردود الأفغاني على رينان

في البدء نقول إنَّ شخصية الأفغاني شخصية قوية ومؤثرة ومحيرة، أما قوية فهو كالسيل الهادر لا يهاب شيئاً، فهو يَعِظُ ويُنَظِّر للسلاطين والأمراء، ويَقلِبُ موازينَ الشاه (ملك إيران) بكلِّ جراءة، ويُصححُ لخديوي مصر ويُراقبُ عملَه، ويُحاججُ الخليفةَ العثماني الملقب بالسلطان الغازي بلا اعتبار لمراسيم اللقاء والاحتشام العثماني السائد آنذاك. أما تأثيرُه فحدِّث عنه ولا حرج أينما حلَّ يتجمع له الشباب الذكي فيختارُ منهم النبيهَ الألمعي فيزرعُ فيه حبَّ النهضة والعلمَ الفلسفي والقيادة والريادة مع الأخذ بزمام الأمور والمبادرة، ثم يُمَلِّكُ أتباعه خيوطَ التأثير في البلد من ترأسهم للجمعيات والأحزاب السياسية والجرائد والمجلات وغيرها، ولو تطلعنا في أسماء مريده وتراجمهم عرفتم ما نرمي إليه...

ففي العراق منهم الشاعر العالِم محمد سعيد الحبوبي[١] والشاعر المنتفض عبد المحسن الكاظمي[٢] والفتى الألمعي أحمد اليزدي وغيرهم، وفي مصر منهم الإمام الشيخ محمد عبده[٣] والسياسي اللامع سعد زغلول[٤] والأستاذ إبراهيم الهلباوي ومحمود البارودي[٥] وسليم النقاش[٦] وأديب إسحاق[٧]، وغيرهم كثير.

أما كون شخصيته محيرة لدى الباحثين؛ لأنهم يتساءلون أنى لشخص واحد هذا التأثير الذي تعجز عنه المؤسسات والأحزاب السياسية في البلاد الإسلامية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فقد لعب دوراً مهماً في كلٍّ من أفغانستان والهند وإيران والعراق ومصر وتركيا (مقر الخلافة العثمانية آنذاك) وأنت تلاحظ مدى محورية هذه

---

١. محمد سعيد بن محمد الحبوبي النجفي (١٨٥٠– ١٩١٦م) شاعر العراق تتلمذ بالحوزة الدينية، ترك الشعر عند بدء كهولته، وتصدى لتدريس الفقه وأصوله، افتى بالجهاد مع العثمانيين ضد الإنكليز، وترأس جماعة من المتطوعين، ثم توفي بالناصرية، من مؤلفاته: ديوان شعر، نظم الدرر. انظر: الزركلي: الأعلام، (٦/ ١٤٢).

٢. عبد المحسن بن محمد النخعي (١٨٧٠– ١٩٣٥م) شاعر العراق، درس اللغة العربية والفارسية، اتصل بالأفغاني، فرَّ إلى إيران والهند ومصر، اتصل به الشيخ محمد عبده والبارودي وشوقي، من مؤلفاته: ديوان شعر، تنبيه الغافلين، معلقات الكاظمي. انظر: كحالة: عمر، معجم المؤلفين، دار: المثنى، بيروت، (٦/ ١٧٣).

٣. الشيخ محمد عبده (١٨٤٩– ١٩٠٥م) مفتي الديار المصرية ومن كبار رجال الإصلاح الديني، تعلم وتصوف وتفلسف، رأس تحرير مجلة الوقائع، ونفي للشام وشارك مع شيخه الأفغاني في فرنسا على إصدار مجلة العروة الوثقى. انظر: الزركلي: الأعلام (٦/ ٢٥٢).

٤. سعد بن إبراهيم زغلول(١٨٥٨– ١٩٢٧م) زعيم نهضة مصر السياسية، درس في الأزهر ولازم الأفغاني مدة، شارك عرابي في ثورته، وقاد ثورة سنة ١٩١٩م، عين قاضيا فمستشارا فوزيرا للمعارف ثم وزيرا للحقانية ثم رئاسة الوزراء ومجلس النواب . انظر: الزركلي، الأعلام، ج٣، ص٨٣.

٥. البارودي(١٨٣٩– ١٩٠٤م) كان لسان الثورة العرابية والداعي إلى الحرية والشورى ومكافحة الظلم والاستبداد وتحريض الأمة على اليقظة والنهوض. انظر: ميربصري، أعلام الوطنية والقومية العربية، ص٣٩.

٦. سليم بن خليل النقاش(ت:١٨٨٤م) مؤرخ وباحث لبناني، مكث في مصر ولازم الأفغاني مدة، من مؤلفاته: مصر للمصريين. انظر: الزركلي، الأعلام، ج٣، ص١١٧.

٧. أديب إسحاق(١٨٥٦– ١٨٨٥) أديب وصحفي سوري تأثر بالأفغاني بمصر، لقب بنابغة الشرق، عمل في عدة جرائد وأصدر جريدة مصر وكان الأفغاني يكتب فيها باسم مستعار(مظهر بن وضاح)،ثم مات بعلة الصدر، انظر: الفاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي،بيروت،ط٨،ص١٠٤٨.وكذا:الزركلي،الأعلام،ج١،ص٢٨٥.

الدول في العالم الإسلامي، فقد استوزر في أفغانستان، وردَّ على الدهريين هناك ثم اصطف اصطفافاً غريباً ضدَّ الفكر المتحرر في الهند، ورُشح لرئاسة الوزراء في إيران، وحَرك منهجاً فكرياً في العراق، وأسس اتجاهاً فكرياً وعلمياً وعملياً في مصر، وخضع تحت الإقامة الجبرية في الأستانة؛ خشية من تحركاته المثيرة، فضلا عن الخلاف في أصله الغير معروف هل هو أفغاني سُني أو إيراني شيعي،[1] وبعض الباحثين مع الأسف لم يحيطوا بكلِّ نواحي شخصيته وأعماله في الدول التي ذكرناها، لذا فهم بيّن ممجد له وناقد، ولا سيما المفكرون المصريون.

إنَّ الأفغاني يتكلم بلسان الفيلسوف تارة وبلسان المتكلم الإسلامي تارة وبلسان السياسي تارة أخرى، والناقد له يجب إنْ يتفطن لهذه النواحي في لسان الأفغاني ومراميه، وإلا فإنه يشط في نقده ويُغرب، ومن خلال حفرياتنا في هذه المناظرة سُنبين أيَّ لسان استخدم الأفغاني في هذه المناظرة، ولماذا.

الآن نبدأ حفرياتنا في ردِّ الأفغاني على رينان، بعد أنْ هذبنا مختصرين محاضرة المسيو رينان وكذلك رد الشيخ الأفغاني عليه، ووجود كلام رينان وردّ الأفغاني في بحث واحد فيه فائدة جليلة في منهج النقد العلمي الأكاديمي الذي يخضع لقوانين البحث العلمي الرصينة، ومنها عرض كلام المتناظرين سوية بدون إخلال وتحيز لطرف دون طرف، ولا سيما وأنَّ ردَّ الأفغاني كاملاً لم يتسن للباحثين الاطلاع عليه إلا قبل سنوات قليلة بترجمته العربية المتكاملة، ومن جهة أخرى فإنَّ عرض الكلامين سوية يوفر دقة في نقد الأفكار؛ لأنها تبين للناقد مَنْ هو صاحب الفكرة الأولى ومن هو الذي يستفيد من كلام الآخر ويبني عليه ويطوره، ومن يتغاضى عن

---

١. حققنا هذه المسألة في كتابنا التيار الحداثي في العراق في القرن العشرين (عرض ونقد) وأثبتنا فيه بالأدلة القاطعة الكثيرة على فارسيته وشيعيته. الباحث.

أقوال مهمة كانت أولى بتثبيتها وإدارة النقاش حولها، وهذا ما سنلمسه جلياً من خلال حفرياتنا في ردِّ الأفغاني على المسيو رينان.

بدأ الأفغاني بمقدمة مدح فيها المسيو رينان تخللتها كلماتُ تبجيل لفيلسوف العصر الذي طبقت شهرته الآفاق، وهذا من حسن الكياسة والسياسة التي يتحلى بها فيلسوف الشرق الشيخ الأفغاني.

ثم بين الأفغاني منهج رينان في توضيح نقطة غامضة في تاريخ العرب، فقال:" التزم رينان بالكشف عن الحقيقة التاريخية "، وهذا المنهج يسمي هذه الطريقة البحث بتاريخانية الحادثة وتاريخانية النص، أي يجب فهم النص والحادثة التاريخية من خلال المحيط الذي تعيش فيه، والتوغل بعمق فيها، ومعرفة أعمدة التأثير وتشخيص الأبطال الذين يلعبون دور البطولة فيها، وتشخيص الأدوار الثانوية كذلك؛ لأنَّ الجميع يعرف أنَّ التاريخ كتبه بعض الكتبة لمصالح سياسية أو دينية أو قومية، فقدموا مغمورين وجعلوهم في دور البطولة، وهذا المنهج يسمى حالياً (بإعادة قراءة النص)[1] الذي يطبل حوله التيار الحداثي المعاصر؛ ليتوصل به إلى قلب الحقيقة لا إلى إيجادها.

عموما إنَّ إعادة القراءة التاريخية بمنهج علمي وأكاديمي رصين هو بغية طالب الحقِّ، وقد أشار المنظرون الإسلاميون إلى هذا قديماً فهم يفرقون بين كاتب التاريخ ومؤرخ التاريخ وفيلسوف التاريخ، ومن قرأ مقدمة ابن خلدون يفهم ما نرمي إليه هنا.

هذه المقدمة التعريفية الموجزة بمنهج نقد التاريخ هي التي ستزن كلام رينان والأفغاني في سردهم التاريخي للأحداث ولا سيما وهما يجعلانها دليلاً على " آثار الديانات في تاريخ الأمم وخاصة تاريخ الحضارة " وهذا ما نص عليه الأفغاني في

---

١. انظر مؤلفات: أركون والجابري ونصر حامد أبو زيد ورشيد خيون وغيرهم. الباحث.

مقدمته، بل الأفغاني اعتبر رينان بأنه " قد أوفى بشكل رائع حقّ هذه المَهمة شديدة الصعوبة عندما ذكَّر ببعض الأحداث التي مرت مرور الكرام إلى يومنا هذا ".

لقد انغر الأفغاني بمقدمات رينان الخلابة حين قال:" الحقيقة لا يُحكم عليها تبعاً لمقولات بسيطة... "، " إنَّ أي شخص قليل العلم بأمور عصرنا سيرى بوضوح التدني الحالي للبلدان الإسلامية، وتراجع الدول التي يحكمها الإسلام، والعجز الفكري للأجناس التي تتمسك فقط بهذا الدين "، ثم دلل ونبه [١] على هذه المقدمات، فذكر برهاناً مفاده امتلاك المسلم للحقيقة المطلقة وازدراءه بالأديان واحتقاره للمعارف وانصهار الأجناس داخل الإسلام باستثناء الفرس؛ لأنهم شيعة، ثم جاء بشواهد من التاريخ الإسلامي مثل: الضربات العاتية لريح الإسلام على التطور الإيراني الكبير، علا شأن بغداد باعتبارها عاصمة لهذه الأقاليم الفارسية الناهضة، وصَفَ المنصور وهارون الرشيد بأنهم مسلمون بالكاد بل هم شغوفون بالوثنية، ونقل قصة طريفة عن حكيم من القيروان سأل عالماً من الأسبان عن جلسات المتكلمين في بغداد؛ لأنه زارها في رحلاته، ثم مدح إخوان الصفا وسمّاها الجمعية الفلسفية التي نشرت دائرة معارف فلسفية فريدة في الحكمة وسمو الأفكار، بينما يتعمد رينان عدم ذكر فترة النبوة والخلافة الراشدة والخلافة الأموية؛ لأنها فترة عربية خالصة، ثم ختم الشواهد التاريخية بقصة طويلة وطريفة عن قاضي من الموصل ليدلل على دوغمائية الإسلام؛ ليصل من خلال هذه المقدمات والبراهين والتنبيهات إلى نتيجتين الأولى: الدين الإسلامي هو العقبة ضد العلم، الثانية: الجنس العربي لا يحب الفلسفة.

---

١. القضايا المُسلم بها كالضرورية البديهية لا تحتاج إلى دليل بل يكتفى بالتنبيه للذاهل عنها، أما القضايا الغير مُسلم بها فتحتاج إلى دليل. الباحث.

هذه البراهين والشواهد وغيرها تغاضى عنها الأفغاني ولم يُعرها اهتماماً في ثنايا المناظرة؛ لأنه مُسلمٌ بأغلبها، ولم يكن غراً كما وصفناه في بداية الفقرة، كنا نأمل أنْ يحلل فيلسوفُ الشرق هذه المقدمات بالمنهج العلمي الرصين؛ ليرى هل تثبت فتعتمد أو تتزلزل فتلغى، وهذا ما لم يفعله الأفغاني مع الأسف.لو فتحنا نافذة من خلال الحفريات على مقدمة رينان: أنَّ السبب الأكبر هو اعتقاد المسلم بامتلاكه الحقيقة المطلقة، ويعني أنه يعتقد اعتقادا جازما لا يتخلله الشك من أي جانب بأنَّ الإلوهية حقٌّ، والنبوة حقّ، والإسلام أكمل الأديان، وهذا ما لا يسلم به رينان، ولا يسلم بتفاصيلها الأفغاني كما سيتضح لاحقاً. إنَّ الحقيقة المطلقة لا نصل إليها إلا بعد البرهان على صدقها وصدق طريق وصولها إلينا، وهذا ما قام به القرآن الكريم حيث اثبت مقام الإلوهية بالأدلة فسرد آيات الخالقية والصانعية والتسخيرية وكلها تدل على الخالق الصانع الذي سخر الكائنات بنظام بديع لصالح الأنام؛ فالمخلوق والمصنوع والمُسَخر هو فقير محتاج إلى خالقه وصانعه ومدبره[1]، ثم اثبت الله تعالى لنا النبوات بواسطة المعجزة التي أذعنت العقول المعترضة وأعلنت على التسليم بصدق النبي؛ لأنه المؤيد من دون البقية بخرق نظام الكون بعد مدعاه بشرط أن يكون الخارق موافقاً لمدعاه، إنَّ تثبيت هذه الآلية الفكرية ودعمها بمناهج عقلية متقنه هو ما قام به عِلم الكلام السُني خلال قرون ماضية إلى أن نضج، وهو بحاجة إلى تجديد لما نراه اليوم من مستجدات كلامية وفلسفية. هذا النقاش لم نجده يجري على لسان الأفغاني، ولا استدل على قيمة المعارف النقلية والعقلية والعرفانية لدى المسلمين، ولا استدل على نضج نظرية المعرفة لديهم التي سطروها في مقدمات عقائدهم وهي تتكلم عن طرق المعرفة وتثبيت طريق الحس والعقل والخبر الصادق، ونبذ السفسطة والأحلام فإنها ليست من مصادر

١. هذا الموضوع يحتاج إلى بحث مستقل تحت عنوان: القراءة الكلامية في الآيات المكية. الباحث.

العلوم.[١] إنَّ القصص البلهاء التي سردها رينان لهي مدعاة للضحك، كيف يستدل رينان على تفاهة علم الكلام وقيمة المناظرات في بغداد من خلال زائر من الأندلس مرَّ مرور الكرام ببغداد، أهذا هو المنهج العلمي الرصين، أم هذا ما وصفه الأفغاني بأن رينان قد أوفى بشكل رائع حق هذه المَهمة، أما كان بهم العودة إلى كتب المتكلمين ومناظراتهم التي غطت الأفاق شهرة، أم هم تعمدوا التعتيم عليها لأسباب معروفة، وهي عدم إبراز علم شامخ فكري وفلسفي للإسلام، ولا سيما وأنَّ إبرازه بصدق يدلل على تفاهة الأفكار الرينانية وركاكة الردود الأفغانية، إذا قورنت بقوة أفكار الشيخ الأشعري[٢] والقاضي الباقلاني[٣] والإمام الجويني[٤] والحجة الغزالي[٥] والإمام الفخر الرازي[٦] والسيف

---

١. انظر مطلع العقائد النسفية: حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق خلاف للسفسطائية و...

٢. أبو الحسن الأشعري البصري(٢٦٠- ٣٢٤هـ) علي بن إسماعيل من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري، هو شيخ السنة وإمام الطائفة عاقد لواء النصر لعقيدة السلف بعد ما انفرط، فأرشده الله تعالى لقمع المعتزلة في أقماع السمسم، وكانت تفتح عليه الأدلة بلا معلم أو كتاب، تبعه علماء المذاهب حتى ذاعت طريقته في الآفاق، من تلامذته: الصعلوكي والباهلي والأستاذ الإسفرايني والشيخ القفال، ومن مؤلفاته: مقالات الإسلاميين، الإبانة، الرد على الجبائي وأخر على الراوندي. انظر: السبكي: تاج الدين علي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود الطناحي وعبدالفتاح الحلو، دار: هجر، ط٢، (٣/ ٣٤٧).

٣. القاضي أبوبكر محمد الباقلاني البصري ثم البغدادي(٣٣٨- ٤٠٣هـ) العلامة الأصولي المحدث الفقيه المالكي والمتكلم الأشعري، ناصر السنة وقامع المعتزلة والجهمية والكرامية، من مؤلفاته: الإنصاف، مناقب الأئمة، التمهيد، شرح اللمع للأشعري. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٧، ص١٩١.

٤. إمام الحرمين عبدالملك الجويني النيسابوري(٤١٩- ٤٧٨هـ) تربى وتعلم بوالده الإمام عبدالله الجويني وغيره، من مؤلفاته: الشامل، البرهان، الإرشاد، الورقات، غياث الأمم، النظامية، مدارك العقول، وغيرها. انظر: السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، (٥ / ١٦٥).

٥. أبو حامد محمد الغزالي (٤٥٠- ٥٠٥هـ) حجة الإسلام واعجوبة الزمان صاحب التصانيف في الفقه والأصول والكلام والمنطق والحكمة، من مؤلفاته: إحياء علوم الدين، الاقتصاد في الاعتقاد، المنخول. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، (٣٧/ ٣٠٢).

٦. محمد بن عمر التيمي البكري القرشي الرازي (٥٤٤- ٦٠٦هـ) أوحد زمانه في المعقول والمنقول وكبير الأذكياء والحكماء والمصنفين، من مؤلفاته: مفاتح الغيب في التفسير، والمحصول في الأصول، وأساس التقديس، ومعالم الأصول في أصول الدين. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، (٤١/ ٤٨٠).

عضد الإيجي[١] وتلاميذهم كالسيد الجرجاني[٢] والسعد التفتازاني[٣] وغيرهم مما لا يحصي القلم زبرهم ولا على الطرس ذكرهم. لم يعلق الأفغاني على المغالطة التي ذكرها رينان وهي أنَّ الأجناس المختلفة انصهرت في الإسلام وتحولت إلى الدوغماية بسبب العقيدة الإسلامية ما عدا الفرس لأنهم شيعة.

لماذا لم يناقش الأفغاني هذه المغالطة هل لأنه فارسي شيعي أو هو كما نظن به قد تجاوز المذاهب بل يبدو كما يصفه رينان قد تجاوز حتى الأديان، يرى الباحث أنَّ رينان لم يكن موفقاً هنا في طرحه، فإذا كان يذم الدوغمائية الإسلامية من خلال إيمانهم بالغيب وإيمانهم بعصمة محمد ﷺ ونصوصه، فإنَّ الشيعة أكثر دوغمائية من خلال اعتقادهم بعصمة جميع الأئمة، وانتظارهم للمخلص وهو المهدي المنتظر.

ثم نتساءل ونقول هذه الأجناس المختلفة لماذا لم تنقدح قريحتها وتنفتق أذهانها إلا مع الانصهار في الإسلام ولاسيما في عصره الأول على تقسيم واعتراف رينان نفسه، ما هو الطارئ الجديد الذي أشعل فيهم هذا الاتقاد ؟ هل هو اختلاطهم بالجنس العربي أو هو انصهارهم بالدين الإسلامي الذي أحيا فيهم قيم الحرية والإنسانية والمسؤولية وقيمة الإبداع والمشاركة وأن النجاح في الدنيا مطلب ديني؛ لذا كان من دعاء القرآن { رَبَّنَا آَتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } ؟ أما

---

١. عبدالرحمن عضد الدين الإيجي، كان ملازما لزين الدين تلميذ البيضاوي، أصبح إماما في المعقول وقائما بالأصول ومشاركا في سائر الفنون، من مؤلفاته: المواقف، شرح مختصر ابن الحاجب. انظر: السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، (٤٦/١٠).

٢. علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني الحسيني (٧٤٠- ٨١٦هـ) إمام العلوم العقلية والنقلية، من مؤلفاته: التعريفات، شرح المفتاح، شرح المواقف. انظر: الشوكاني: البدرالطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، (٤٦٦/١)

٣. مسعود بن عمر السعد التفتازاني (٧١٢- ٧٩٣هـ) من أئمة العربية والبيان والمنطق، درس على القطب والعضد، من مؤلفاته: المطول، مختصر المعاني، شرح العقائد النسفية. انظر: ابن العماد: شذرات الذهب، (٦/ ٣١٨).

اختلاطهم بالجنس العربي قد رده رينان نفسه – وإن كنا لا نسلم برده ولكن من باب التنزل لقول الخصم في المناظرة – ؛ لأنه يصرح بأنَّ العرب لا يحبون الميتافيزيقيا ولا الفلسفة، إذن الإسلام هو الذي أيقضهم من رقادهم وخمولهم الحسي والمعنوي، وما دام الإسلام نجح في قرون فلا يعقل أن يتهم بعدها بأنه كان سببَ الفشل والدوغمائية في أتباعه، كان على الباحث المصنف أن يتوجه إلى الأسباب الخارجية عن ذات الدين التي أدت إلى انهيار أتباعه وتخلفهم عن ريادة الحضارة، وهذا ما لم يفعله رينان، ولا ذكره الأفغاني، بل الأدهى والأمر ما لمسناه من الأفغاني وهو يصرح قائلاً: في الحقيقة فقد حاولت الديانةُ الإسلامية خنقَ العلم وإيقاف التقدم، ونجحت في عرقلة الحركة الفكرية أو الفلسفية وفي تحويل العقول من البحث في الحقيقة العلمية.

الآن لنتساءل لماذا يقف الأفغاني هذا الموقف المريب من الإسلام وعقيدته ؟ وهنا لنسلط حفرياتنا النقدية على بعض ردود الأفغاني حتى نفهم نظرته وفلسفته تجاه الأديان، حيث قال عن سبب انقياد الناس للأديان السماوية والوضعية بعد فشلها بالانقياد للعقل المحض:" لأنَّ الإنسانية بحثت خارج ذاتها عن ملاذ عن ركن آمن حيث يستطيع ضميرها المعذب أن يجد راحته، وعندئذ ظهر معلم ما – وأقول بصوت عال – ليس لهذا المعلم القدرة الضرورية على إرغامها لإتباع صوت العقل؛ فألقى بها في المجهول، وفتح لها الآفاق العريضة في الخيال، وسيلبي رغباتها إن لم تكن كاملة فعلى الأقل مجال لا محدود من آمالها ".

هذا النص خطير جداً على الاعتقاد الديني وليس الإسلامي فقط، فالأفغاني لم يذكره تلميحاً أو بصوت خاف، بل صرح أنه سيصدح به بأعلى صوت، فهو أولاً يساوي بين الأديان السماوية والأديان الوضعية بدون تفريق بينهما، وهذا واضح من قوله:" معلم ما "، ثم وصفَ المعلمَ سواء كان نبياً أو دعيا أو مصلحاً بأنهم لا يملكون

القدرة الضرورية التي تلجئ الأتباع للانصياع لصوت العقل، فألقوا بهم في المجهول، وفتحوا لهم آفاقاً عريضة من الخيال، واستجابوا لضغط العوام ورغباتهم.

هذه هي نظرة الأفغاني للأنبياء والمرسلين، وهذا ليس بخاف على الباحث فقد رصده في مواضع مختلفة وهو يشير إلى هذه المعاني، الموضع الأول: كلمة ألقاها الأفغاني في الأستانة مقر الخلافة العثمانية بمحضر شيخ الإسلام حسن أفندي هناك، ساوى فيها بين الرياضة الكسبية للفيلسوف ومقام النبوة في الاعتقاد الإسلامي، فنهض شيخ الإسلام بالرد عليه، وحرص العلماء بخطب الجمعة على بيان خطأ مقولته، فخشي عليه فنصحوه بالخروج من مقر الدولة العثمانية فخرج إلى مصر الخديوية.[١] والموضع الثاني: ما قاله شارحاً لآراء ابن رشد: مِن أنَّ دورَ الأنبياء والفلاسفة واحدٌ في خدمة مصلحة البشر، والموضع الثالث: ما سطره هو وتلميذه محمد عبده في تعليقاتهم على شرح الدواني على العقائد العضدية في تعريف النبي، حيث قال:" النبي إنسان فُطر على الحق علماً وعملاً، بحيث لا يعلم إلا حقاً ولا يعمل إلا حقاً على مقتضى الحكمة "[٢] ، والقارئ خبيرٌ بأنَّ التعريف قد خلى من مفردة الوحي نهائياً، بل جعل معيار النبوة فطرة داخلية فقط.

فلا تستغرب بعد هذا من قوة المصطلحات التي استخدمها الأفغاني ضد الدين، ومنها:

١- إنَّ المربين والمعلمين فرضوا على الإنسانية الطاعة باسم الكائن الأعلى، ثم يوضح بعد سطرين فقط أنَّ المربين هم الأنبياء بقوله: إننا لا نستطيع أنْ ننكر

---

١. الوردي: علي حسين، لمحات من تاريخ العراق الحديث، الناشر: انتشارات الشريف الرضي، قم، إيران، ط١، ١٩٩٢م، (٣/ ٢٧٢). وفيه أنه ألفت رسالة في الرد على الأفغاني بعنوان (عين الصواب في الرد على من قال إن الرسالة والنبوة صنعتان تنالان بالاكتساب).

٢. الأفغاني ومحمد عبده: التعليقات على شرح العقائد العضدية، إعداد وتقديم: سيد هادي خسرو، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م، ص ١٥٢.

أنه بهذا التعليم الديني سواء كان إسلامياً أو مسيحياً أو وثنياً خرجت كلُّ الأمم من حالة البربرية واتجهت نحو الحضارة المتقدمة.

٢- إنَّ المربين والمعلمين (الأنبياء) لا يسمحون لأتباعهم بالمناقشة في المنافع والمضار.

٣- كلُّ الأديان متعصبة، كلٌّ منها على طريقته، وقال: الأديان من بعض.

٤- لم يتحرر المجتمع الإسلامي بعد من وصايا الدين.

٥- آمُلُ أن يصل المجتمع المحمدي ذات يوم إلى أن يحطم قيوده ويتقدم بتصميم.

٦- في الحقيقة حاولت الديانة الإسلامية خنق العلم وإيقاف التقدم.

٧- نجحت الديانة الإسلامية في عرقلة الحركة الفكرية أو الفلسفية.

٨- نجحت الديانة الإسلامية في تحويل العقول من البحث في الحقيقة العلمية.

٩- على المؤمن الحقيقي الانصراف إلى طريق الدراسات العلمية التي تتبعها جميع الحقائق.

١٠-المؤمن الحقيقي مشدودٌ إلى عقيدته التي استرقته كالثور إلى المحراث.

١١-المؤمن الحقيقي يمشي أبداً في نفس الخط الذي رسمه له سلفاً شراح الشريعة.

١٢-العقيدة الإسلامية قد تغلغلت في البلاد التي فتحتها بالعنف الذي نعرفه.

١٣-يا لها من مَهمة دموية لتاريخ ديانة ما (يقصد الدين الإسلامي) مثلما هي لتاريخ شعب (يقصد المسلمين).

١٤-الديانة المسيحية خنقت العلم والفلسفة بأشواك النقاشات اللاهوتية.

١٥-كلُّ إيمان خلفه الدين سوف يمحو الفلسفة، ويحدث العكس عندما تحكم الفلسفة وتكون السيدة الحاكمة.

١٦-ما دامت الحياة قائمة فإنَّ الصراع باق بين الدوغمائية والاختيار الحر، بين الدين والفلسفة، فهو صراع ضاري.

إنَّ هذه الفلاشات القصيرة والسريعة والعميقة يتعمد الأفغاني بثها بين الحين والآخر؛ لأنها تولد رجات فكرية في عقول المستمعين، وهي تولد زعزعة للمقدسات في اللاوعي لدى المسلمين رغم أنوفهم.

إذا فهمنا كلَّ هذا فهمنا مقالة الأفغاني في صدر رده على رينان، بعد تلخيص محاضرته بأنه يتهم الدين الإسلامي بأنه سبب للتخلف، ويحمل العقيدة الإسلامية مسؤولية التخلف وتراجع الدول الإسلامية عن الحضارة، وأنَّ العرب لا يحبون الفلسفة، وقال: لا شك إنَّ قلة الوقت هي التي منعت السيد رينان من توضيح هذه النقاط، إلا أنَّ الداء موجود مع ذلك.

لذا تجد الأفغاني يثني على كلام رينان بين الفينة والفينة، وبعد أن يسرد القيود التي يدعيها أنها بسبب الأديان يستشعر ثقل الأديان على الإنسانية، وثقلها على حرية الفكر، فيقول: أنا أعرف كلَّ هذا، وأعرف أنَّ المسلم المتعصب المفعم بعزة بلهاء بسبب اعتقاده بأنه يملك الحقيقة المطلقة ينتمي لجنس قد رسم طريقه في العالَم، ليس فحسب بالنار والدم بل أيضاً بأعمال باهرة وخصبة تبرهن على ميله للعلِم ولكلِّ العلوم بما فيها الفلسفية، والحق يقال بأنه لم يستطع أن يتعايش معها طويلاً.

هذا النص يوضح لك ما هو مخزونٌ في فكر الأفغاني تجاه الأديان وأنها فعلا قيود ضد الإنسانية، وأنَّ الأديان ومنها الدين الإسلامي فتح البلاد بالنار والدم والقتل والإرهاب، وأنَّ الأديان تنشئ جيلاً متعصباً، وأنها مهما حاولت من التعايش مع الانفتاح والحرية والفلسفة ستتكفئ وتعود القهقري إلى ما كانت عليه.

إنَّ الأفغاني يتطابق مع رينان بأكثر أرائه الفلسفية؛ لذا تجد رينان يمدح الأفغاني ويعتبره نموذجاً متميزا قد تجاوز مسألة الدين الإسلامي، فقال:" حتى المتميزين من رؤساء الدين الإسلامي لن يكونوا إلا قلائل مثل الشيخ جمال الدين، ممن سينفصلون عن الإسلام، كما انفصلنا نحن عن الكاثوليكية..."[١]

يرى الباحث هنا أنَّ رينان كان ذكياً وعميقاً في تقيّم الأفغاني على ندرة اللقاء بينهما، إذ اعتبره في قنطرة الذين تجاوزوا الأديان، وكان محقاً في وصفه، وهذا ما لم يدركه كثير من مفكري العرب – على كثرة دراستهم للأفغاني – الذين مازالوا يمجدون الأفغاني وتراثه.

دارت المناظرة حول توصيف دور العرب في المسيرة الحضارية الكلية، أو ما تسمى حالياً بصراع الحضارة، فرينان تعجب من السر الإلهي في دخول العرب سلك الحضارة. وصف الأفغاني التاريخ بأنه ليس ملكاً لأحد بل هو دول بين الأمم كلما خبت أمة استأنفته أخرى، والعرب استأنفوا رغم جهلهم وجاهليتهم قبل الإسلام مشعل الحضارة، فأحيوا ما أهملته الأمم المتحضرة، وأعادوا الحياة للعلوم الهامدة، فطوروها وأعطوها وهجاً لم يكن لها قط. وهذا كلام جيد للأفغاني ولكنه تناسى أشياء كثيرة هي في صلب الاعتقاد والدين وهي نافعة للعلوم الإنسانية، قد توسع علماءُ الإسلام بشرحها وتبينها وذكر فوائدها كما فعل حجة الإسلام الغزالي على سبيل المثال، فذكر اختصاص الأديان بعلوم حقيقية جديدة لم تكن معروفة سابقاً كعلوم الوحي، وذكر أنَّ بعض الصناعات لم تكن معروفة لولا أنها أوحيت إلى نبي من الأنبياء كما كان مع

١. مقال لرينان ردَّ فيه على الأفغاني في جريدة Debats. نقلا من: مجدي عبد الحافظ: الإسلام والعلم، مصدر سابق، ص ٦٧.

آدم وإدريس وداود وغيرهم عليهم السلام، وكذا ذكر العلوم في الجانب الروحاني التي تعاملت مع الروح والنفس وتهذيبها بشكل رائع ومتوازن مع مهمة الخلافة في الأرض.[١]

هناك أمور كثيرة ونقاط مهمة لم يتوقف عندها الأفغاني ولم يفتح لها سنان الجدال ولم يفصح عما في جعبته من إلزامات يمتلكها لو أراد أن يخوض فيها مع رينان بلسان العالم المتكلم المدافع عن دينه وعقيدته، ولكنه آثر لسان السياسة والفلسفة، فكان ما كان من تراجع في طرحه ومناظرته، ومن هذه النقاط:

١- لم يدافع الأفغاني عن الوحي في العقيدة الإسلامية بعد أنَّ طعن فيه رينان عندما صرح قائلاً: بأنَّ سبب الدوغمائية في البلاد الإسلامية هو بسبب الوحي المزعوم، وأنَّ الحرية الإنسانية لم تجرح بهذا العمق لولا الوحي المزعوم.

٢- لم يدافع الأفغاني عن السلف الصالح (القرون الثلاثة) حيث قال رينان طاعناً في عقيدتهم: كان العرب الأوائل الذين انضموا للحركة بالكاد يعتقدون في رسالة النبي، وكاد الشك يكون مستتراً خلال قرنين أو ثلاثة.

٣- لم يدافع الأفغاني عن المدنية الإسلامية التي وفرت الحرية التي تمتع به المسلم في عدم الخضوع للإلهة المزيفة وأعلت من حريته الشخصية في الاختيار وأرجعت إليه ملكيته المادية الخاصة المحترمة من قبل الدولة الإسلامية وغيرها، بعد أن ذم رينان الحياة المدنية في الإسلام قائلاً: ثم جاء الحكم المطلق للدوغمائية دون أي فصل بين الروحي والزمني، حكم قهر وعقاب بدني لمن لا يقيم العبادات، لم تجرح

---

١. الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد، المنقذ من الضلال، تحقيق: محمد محمد جابر، دار: المكتبة الثقافية، بيروت ، انظر: ص٥٣. وأحسن د. المغربي إلياس بلكا حين يسمي الكتاب بالسيرة الفكرية للإمام الغزالي. الباحث. كذا انظر: كيمياء السعادة للإمام الغزالي، ص٤.

الحرية بهذا العمق مثلما جرحت في هذا الحكم الدوغمائي التي هيمنت على حياته المدنية.

٤- لم يدافع الأفغاني عن اللغة العربية وهي لغة القرآن بعد أن وصفها رينان بأنها قليلة التأقلم، وقال في موضع آخر: هي صالحة للشعر تماماً ولبعض من البلاغة، فهي أداة غير صالحة بالمرة للمتافيزيقيا. إنَّ هذه مغالطة رينانية واضحة فالعرب فهموا العلوم اليونانية بعد أن ترجموها من اللغة اللاتينية، ثم أعادوها إلى الأوربيين بحلة جديدة من الشرح والتعقيب والتهذيب وإزالة الأفكار المشوشة والمشوهة والضعيفة، وأعادوا هيكلتها وصياغتها بفكر ناضج، لا كما يقول رينان: ذهبنا للبحث في أسبانيا عن علم يوناني سيء الترجمة ويعتريه الخلط.

٥- لم يدافع الأفغاني عن علماء العرب والمسلمين وفلاسفتهم حين وصفهم رينان: بأنهم يعتبرون إلى حدٍّ كبير كُتاباً من النوع الرديء.

٦- لم يعقب الأفغاني على اضطراب رينان الواضح، فهو من جهة يذم اللغة العربية ويذم الترجمة الرديئة، ومن جهة يمدح مراكز الترجمة؛ لأنَّ القائمين عليها ليسوا عرباً في نظره.

٧- لم يعقب الأفغاني على قول رينان: وفيما بعد سيطر الجنس التركي على الإسلام ورجح كفة الغياب الكامل للعقل الفلسفي والعلمي في كلِّ مكان، ومن تلك اللحظة لم يعد في كنف الإسلام أي عقل متحرر، حيث قتل العلم والفلسفة على أرضه.

٨- لم يعقب الأفغاني عن عبور رينان لقرن وثلث من الزمن (١٣٣ سنة) من الحضارة الإسلامية، وهي زمن النبوة وزمن الخلافة الراشدة وزمن الدولة الأموية؛ لأنها كانت تمثل زمن الحكم العربي الخالص لدولة قد غطت أراضيها الخافقين.

٩- لم ينافح الأفغاني عن خلفاء بني العباس بعدما وصفهم رينان بأقذع الأوصاف، كقوله إنهم مسلمون بالكاد، وهم أصحاب عقائد مزعزعة، وإنهم يحبون الوثنية وكلَّ شيء غريب، وإنَّ الداعر يُبحث عنه في بلاطهم.

١٠- لم ينافح الأفغاني عن حضارة بغداد، بعد أنْ وصفها رينان بأنها حضارة جذابة وعجيبة وخليط غريب.

١١- لم يدافع الأفغاني عن هيكلية الإدارة في الخلافة العباسية، بعدما وصفها رينان بأنها تدار من قِبل جند وحاشية من الوزراء والمعلمين والمربين الفرس، وحاشية طبية مسيحية، لذا قال: احتل المجوس والمسيحيون الإدارة.

١٢- لم يعقب الأفغاني على رينان عندما علل دخول العرب إلى حلقات الحضارة بأنها مسألة تعود إلى العناية الإلهية السرية التي تعمل على أنْ تجد شعلة العقل الإنساني شعباً يقوم بالتقاطها عندما تبدأ بالأفول على أيدي شعب ما. فها هو رينان يؤمن بدورة جبرية دوغمائية تقودها العناية الإلهية السرية. ووقع فيما ذم به الآخرين؛ لأنه يجيب على تساؤل: لماذا أسرع العرب إلى علم اليونان وهم أبعد، ولم يسرع الألمان والفرنسيون والإنكليز وهم أقرب.

١٣- لم يعقب الأفغاني على قول رينان وهو يتناول (علم الكلام) بصورة ساذجة بعيدة عن المنهج العلمي في البحث، حيث شيد الإسلاميون منهجاً رصيناً يدافع عن العقائد الإسلامية النقلية بالأدلة العقلية ويحاجج عنها ويرد الشبه، وهذه الطريقة شُيدت على مدار قرون طويلة ولها مؤلفات غريزة، حتى أنَّ المنصفين من المستشرقين – وقليل ما هم – انبهروا بهذه الدراسات الكلامية والفلسفية العميقة والتي سبقت الغرب بأكثر من عشرة قرون، ولعل كتاب البروفيسور العراقي باسل الطائي

(بروفيسور في الفيزياء الكونية) الموسوم بدقيق الكلام الرؤية الإسلامية لفلسفة الطبيعة يتناول هذا الجانب بالتفصيل.[١]

١٤- لم يعقب الأفغاني على رينان وهو يصف الإسلام بالدوغمائية، والمسلمون يكرهون العلم الطبيعي التجريبي؛ لأنهم يرون استمرارية القوانين الطبيعية التجريبية وهذه يعني أنها تنافس الله في أرضه. إنَّ المسلمون لا يعتقدون هذا الاعتقاد الساذج كما يصوره رينان ويروج له بمحاضرته، فأهلُ الكلام الإسلامي السُني المنضبط بالكتاب والسُنة يقولون: الله تعالى خالقٌ لكلِّ شيءٍ، وهو الذي وضع نظامَ العمل لكلِّ الكائنات لقوله تعالى {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} أي هدى الكائنات بجميع أصنافها (الجماد والنبات والحيوان) لأعمالها، فهي مُسخرة بأمره، والمُسخر الذي يسير بنظام وأوامر خالقه هو عبد مقيد لسيده وهو الله جل جلاله، فلا يعقل بعد هذا أنَّ نعتقد: أنَّ المخلوقات تؤثر بطبعها، أو أنها بنفسها علة في غيرها، بدون إرجاعها إلى خالقها وناظمها، ومع هذا أقروا بالعلم الطبيعي التجريبي واعتمدوا على تعاقبه العادي الظاهري؛ لأنَّ المعرفة الحقيقية للعلاقة بين المخلوقات وحقيقة صلتها بالله تعالى والاعتقاد بذلك لا يمنع من التعامل معها خارجاً وواقعاً.

إنَّ سبب استهزاء الفيلسوف رينان بعلم الكلام السُني في موضوع التلازم السببي الضروري الذي ينكره متكلمو أهل السُنة والجماعة كان بسبب وثوقه القاطع بعلوم عصره الفيزيائية آنذاك وهي نهاية القرن التاسع عشر، حيث كانوا مستسلمين لنظرية الفيزياء الميكانيكية التقليدية القائمة على مبدأ الحتم والإلزام والتي أدت إلى نبذ كلِّ تدخل إلهي في عالم المادة ما دمنا نستطيع تفسيره بعيداً عن الفعل الإلهي، ولكن

١. الطائي: محمد باسل، دقيق الكلام الرؤية الإسلامية لفلسفة الطبيعة، دار: عالم الكتب الحديث، ط١، ٢٠١٠م، إربد – عمان.

سرعان ما نهارت وتزلزلت هذه النظرية في مطلع القرن العشرين مع ظهور الفيزياء الكمية ومفهوم اللاحتم، وأقروا بمبدأ جواز (العادة) ترتب المسَببات على الأسباب.[١]

والباحث يرى أنَّ الفكر الإسلامي أعمق فكراً من رينان وأمثاله.

١٥- لم يعقب الأفغاني على رينان وهو ينفي زيارة جيربير إلى البلاد الإسلامية؛ لكي يقنعَ السامعين بعدم الاستفادة من العرب من أي جهة كانت، وهذه مغالطة مع تعصب عنصري أعمى، فالقاعدة العلمية تقول: لابد للمتأخر من استفادته من المتقدم ولو بوجه من الوجوه، فالعلم تواصلي وليس انقطاعي، ولاسيما وأنَّ جيربير عاش في زمن البربرية الأوربية وعصور الظلام حيث كانوا من المتعطشين للعلوم الإسلامية الفائقة آنذاك في كلِّ العلوم.

١٦- لم يعقب الأفغاني على رينان وهو يمدح الفرق الباطنية والشعوبية الهدامة للدين الإسلامي، مثل الإسماعيلية وجماعة إخوان الصفا.

١٧- لم يعقب الأفغاني على توصيف رينان بأنَّ أول ظهور للفلسفة كان مع نشاط عقول مثل الكندي.

فهل التوصيف (لأول ظهور للفلسفة) للفظ ومتى ظهر؟ أو هو توصيف للمعاني وهي مدار النقاش، فالفكر العقلي والفلسفي على أشده كان قائماً في حضارة وادي الرافدين قديماً، وحوار إبراهيم عليه السلام في أور العراق مع الصابئة عبدة الكواكب وفلسفتهم التي تُقر بتأثير السماء على الأرض، أو حواره مع النمرود في مدينة الحضر جنوب الموصل لهي البرهان القاطع في هذا المقام، إنَّ امتلاك مدينة بابل آنذاك أكبر المراصد الفلكية، مع امتلاكهم لمجلس حكم ومجلس شيوخ لإدارة مملكتهم لدليل كبير على امتلاكهم الفلسفة الفيزيقية والميتافيزيقية وفلسفة السياسة في إدارة بلادهم، فأقام

١. الطائي: دقيق الكلام، مصدر سابق، انظر ص ١٨٦- ١٨٧.

إبراهيمُ عليه السلام الحجةَ عليهم بالنقاش العقلاني مع استخدام طريقة التنزل للخصم وهذا كله حدث قبل ٢٠٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وهو مثبت عند المسلمين بأصدق الوثائق وثوقية وهي القرآن الكريم عند قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } (البقرة ٢٥٨)، ووجد الباحثون الأجانب في حضارة الحضر على مكتبة بانيبال التي تضم أكثر من خمسة ألاف رقم طيني، فتخيل مدى عمق هذه الحضارة التي تقع في وادي الرافدين، أنا أتعجب من تبجح الغربيين وهم يتعالون علينا بفيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وهم لا يتعدون القرن الخامس قبل الميلاد.

١٨- لم يعلق الأفغاني على تشبيه رينان للزحف الإسلامي العمري بزحف آتيلا الهوني وزحف جنكيز خان المدمر، وقال: إنَّ العلم بصناعة السلاح كفيل بإيقاف تقدم هذه الجيوش.

والباحث يجيب على النقطة الأخيرة من جانبين، الجانب الأول خاص بفكر الأفغاني نفسه، فهو يعتقد بأنَّ الزحف الإسلامي لا يختلف عن بقية الزحوف المدمرة، وهذا واضح مما بيناه سابقاً من نظرة الأفغاني للأديان، فهي متعصبة ومدمرة ومجرمة؛ لذا لا نستغرب من كثرة عدم ردِّ الأفغاني فهو مؤمن ومصدق بأكثرها، أما الجانب الثاني فهو ردٌّ على رينان الذي لم يميز بين الجيوش الزاحفة من عدة جهات، من جهة المبدأ والدافع، ومن جهة العدد والعدة، ومن جهة النظام الذي حكموا فيه البلاد، أما الجهة الأولى فإنَّ الدافع لغير المسلمين كان الغزو والاستيلاء على مقتدرات الشعوب وحب الظهور وتوسيع الإمبراطوريات، وفي بعضها كان شدة المجاعة والحاجة للطعام وأراضي الرعي، وهذه الأسباب لم تكن في خاطر الزحف الإسلامي بل كانت العقيدة

ونشر الدين الإسلامي؛ لإنقاذ الناس من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد، ونقلهم من تعاسة الدنيا إلى سعادة الدنيا والآخرة، وسير الفتوحات الإسلامية زاخرة في هذه المعاني، أما الجهة الثانية وهي جهة العدد والعدة فلم يكن يحضى الجيش الإسلامي بالتفوق على أعدائه لا من حيث العدة ولا من حيث العدد، بل ولا توجد مقارنة فإنَّ أعداءه كانوا يتفوقون عليه بأضعاف مضاعفة، ومع هذا كان النصر حليفاً للمسلمين؛ لأنهم على يقين بقوة عقيدتهم وبصدق مخرجهم وصحة جهادهم ونبل قضيتهم وكثرة طاعاتهم وقلة اختلافهم فيما بينهم، شعارهم (وما النصر إلا من عند الله)؛ لهذا كان النصر حليفهم، والمرة الوحيدة التي تفوقوا فيها عددا وعدة على عدوهم في غزوة (حُنين) فأصابتهم الثقة بالنصر من قبل العدة والعدد لا من عند الله تعالى فخسروا تلك المعركة، وأما الجهة الثالثة فإنَّ المسلمين بشروا الناس والبلاد المحررة بالعدل، وصدقوا بما وعدوا به الناس، فعاشت البلاد والعباد في أمن وأمان وازدهار في ظل الخلافة الإسلامية ولعدة قرون، وهذا ما شهدت به الأعداء.

ولكن رينان تغاضى عن كل هذا، ثم يدعي أنه الفيلسوف والمنصف والمحلل الذي يتبع الطرق العلمية والأكاديمية للوصول إلى الحقيقة، فسُخفاً لهذا المتعصب المراوغ.

قبل أن نخرج من هذه الحفريات التي كشفت عن فلسفة رينان والأفغاني على حدٍّ سواء، كان لزاماً علينا أن نفرق بين الفيلسوف والمتكلم، حتى نكمل الصورة إيضاحا والتي بدأنا برسمها في ثنايا البحث، فنقول: الفيلسوف يبحث ثم يعتقد ما توصل إليه من خلال بحثه، والمتكلم يعتقد ثم يدلل على اعتقاده بالأدلة العقلية، فشتان بين مَن له شريعة هادية وقانون إسلامي، وبين من يجعل أساسه البرهان الفلسفي ثم يدعي أنَّ الشريعة لا تخالفه، إنَّ العالِم المتكلم يعلَم ويعمل بعلوم الشريعة ويُعْمل عقله في

تحصينها، فله مشروع إسلامي، والفيلسوف يعلَم علوم الشريعة للمعارضة والمخالفة، فله مشروع فلسفي، فشتان بين العالِم المتكلم المعبر عن الآراء الإسلامية، وهو مؤتمن عليها، وبين الفيلسوف المعبر عن آراءه الفلسفية، وهو مؤتمن عليها، فشتان بينهما.

لقد أغفل رينان والأفغاني العقيدة الإسلامية الصافية المنبع، والصحيحة الطريق إلى صاحب الشريعة حيث إنها غطت جميع الأسئلة الفلسفية الرئيسة، وبأسلوب بسيط يحتوي على أدلة حسية وعقلية، يتناغم مع قدرات عوام الناس، مستخدمة اللغة العربية آلة للتواصل مع الناس لما تمتلكه من مقومات اللغات الحية والفاعلة في التواصل مع الآخرين، فأصبحت لغة القرآن، فتثبتت العقائد في قلوب الناس، إنَّ الأفغاني ورينان يُصرَّان على أنَّ الدين هو تقليد وعمى وهو غير قادر على الإجابة على الأسئلة الفلسفية وأنَّ الفلسفة والحرية الحقيقية هي بالخروج عن الدين وقيوده وضوابطه التي تلجم الفكر وتأسره برؤية منفردة.

الخاتمة

المناظرات بين الأعلام في زمن التاريخ كثيرة، وهي تحتاج إلى انتقاء وإعادة النظر فيها وتعميق الحفريات حولها؛ لأنها تمثل فلسفات عميقة في حقيقة معانيها، وهذا جزء من مشروع تجديد علم الكلام المعاصر.

١- الإسلام والعلم محاضرة أو مناظرة لها وقعها المدوي المعاصر.

٢- الإسلام دين العلم والفكر، لا دين التقليد والعمى والدوغمائية.

٣- جمال الدين الأفغاني تكلم بلسان الفيلسوف فأضر بالدين والفلسفة على حدٍّ سواء.

التوصيات

١- تسليط الضوء على البحث والمناظرة مع الآخر، ولا بد للمناظر عن الإسلام أن يكون قد أحاط بجميع جوانبه.

٢- نحتاج إلى منهجية علمية جديدة في البحث والمناظرة؛ لذا أدعو إلى إعادة صياغة مادة (أدب البحث والمناظرة) في الكليات الإسلامية بما يتناسب مع مشروع تجديد علم الكلام المعاصر.

٣- ضرورة عرض كلام المتناظرين كاملاً أمام الباحثين؛ ليتسنى لهم معرفة الأفكار الأصلية ونسبتها إلى أصحابها، وقد رأينا كيف كنا نظن أنَّ بعض الردود هي من نتاج الأفغاني فاتضح أنها مستقاة من كلام رينان، أو ظننا أنَّ الأفغاني قد أحسن بالرد على هذه الجزئية وإذا به قد أساء في الكلية.

المصادر

١-الأحمد أنكري: القاضي عبد رب النبي، دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، تحقيق: حسن هاني، دار: الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

٢-: ابن الأثير: علي بن محمد، أسد الغابة. بلا

٣-ابن أبي أصيبعة: أحمد بن القاسم، عيون الأنباء في طبقات الأطباء. بلا.

٤-الأفغاني ومحمد عبده: التعليقات على شرح العقائد العضدية، إعداد وتقديم: سيد هادي خسرو، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.

٥-بدوي: عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، دار: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. والموسوعة من ثلاثة أجزاء كبيرة.

٦-الجرجاني: علي بن محمد (ت: ٨١٦هـ)، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار: الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

٧-الجونغري الهندي: عبد الرشيد (ت: ١٠٨٣هـ)، شرح الرشيدية على رسالة الشريف الجرجاني في آداب البحث والمناظرة، تحقيق: علي مصطفى، دار: الإيمان، مصر، ط١، ٢٠٠٦م.

٨-الجوهري: إسماعيل بن حماد (ت: ٣٩٣هـ)، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، دار: العلوم للملاين، بيروت، ط٤، ١٩٩٠م.

٩-الحميري: محمد بن عبدالمنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة: ناصر للثقافة، دار: السراج، ط٢، ١٩٨٠م.

١٠- ابن خليكان، أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار: صادر.

١١- الذهبي: شمس الدين أحمد بن محمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، دار: الرسالة، ط١.

١٢- الزركلي: خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار: العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٠م.

١٣- السبكي: تاج الدين علي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، دار: هجر، ط٢.

١٤- السعدي: عبد الملك بن عبد الرحمن، حسن المحاورة في آداب البحث والمناظرة، دار: النور، عمان، ط١، ٢٠١١م.

١٥- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن (ت: ٩١١هـ)، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، تحقيق: محمد إبراهيم، دار: الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.

١٦- الشوكاني: محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، بلا.

١٧- الصفدي:خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار: إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م.

١٨- الطائي: محمد باسل، دقيق الكلام الرؤيا الإسلامية لفلسفة الطبيعة، دار: عالم الكتب الحديث. أربد – عمان، ط١، ٢٠١٠م.

١٩- الطرابيشي: جورج، معجم الفلاسفة، دار: الطليعة، بيروت، ط٣، ٢٠٠٦م.
العصامي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي. بلا.

٢٠- ابن العماد، عبد الحي بن أحمد العكري، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار: الكتب العلمية، بيروت، ط١.

٢١- الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد، المنقذ من الضلال، تحقيق: محمد محمد جابر، دار: المكتبة الثقافية، بيروت.

٢٢- الفاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، بيروت، ط٨ .

٢٣- الفراهيدي: الخليل بن أحمد (ت: ١٧٠هـ)، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار: الهلال.

٢٤- الفيروز آبادي: محمد بن يعقوب (ت: ٨١٧هـ)، القاموس المحيط . بلا.

٢٥- القفطي: علي بن يوسف، أخبار العلماء بأخيار الحكماء، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار: الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ٢٠٠٥م

٢٦- كحالة: عمر، معجم المؤلفين، دار: المثنى، بيروت.

٢٧- الكفومي: أيوب الحسيني (ت: ١٠٩٥هـ) الكليات، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، دار: الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٢٨- محمود: زكي مجيب، الفلسفة المختصرة، مترجمة باشراف د. زكي نجيب محمود، دار: القلم، بيروت.

٢٩- مجدي: عبد الحافظ، الإسلام والعلم – مناظرة رينان والأفغاني: ترجمة ودراسة مجدي عبد الحافظ، المركز القومي للترجمة، إشراف جابر عصفور، ط٢، ٢٠٠٩.

٣٠- المناوي: محمد عبد الرؤوف، تحقيق: محمد الداية، دار: الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

٣١- ابن منظور: محمد بن مكرم الأفريقي (ت: ٧١١هـ)، لسان العرب، دار: صادر، بيروت، ط١.

٣٢- المهدي: محمد بن حسن: بهجة المجالس حول آداب البحث والمناظرة، دار: المطبعة العربية الحديثة، مصر، سوهاج، ط١، ٢٠٠٨م.

٣٣- الوردي: علي حسين، لمحات من تاريخ العراق الحديث، الناشر: انتشارات الشريف الرضي، قم، إيران، ط١، ١٩٩٢م.

٣٤- مير بصري: مير شأول، أعلام الوطنية والقومية العربية، دار الحكمة، لندن، ط١، ١٩٩٩م.